

جهود علماء بلاد ما وراء النهر في الرد على المتصوفة

إعداد

د/ كمال عبد العال تمام عبدالعال

أستاذ العقيدة المساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

جهود علماء بلاد ما وراء النهر في الرد على المتصوفة

كمال عبد العال تمام عبدالعال
قسم: أصول الدين بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
البريد الالكتروني : kaabdelaal@imamu.edu.sa

الملخص

في هذا البحث نلقي الضوء على جهود علماء بلاد ما وراء النهر في مواجهة التصوف فقد قاموا في وجه اتباعه المغالين منذ ظهورهم في بلادهم يحذرون الناس منهم، ويبينون ما هم فيه من انحراف وفساد.

فناقشوا المتصوفة في كثير من عقائدهم المنحرفة، وكشفوا عوار التصوف، واشتد نكيرهم على طوائفهم المبتدعة، وردوا أباطيلهم وعقائدهم المنحرفة.

ويهدف البحث إلى:

١- المساهمة في كشف النقاب عن التراث الفكري في بلاد ما وراء النَّهر وما يحويه من قامات ومؤلفات علمية في مختلف ميادين العلم والمعرفة.

٢- بيان إسهامات علماء بلاد ما وراء النَّهر في كشف عوار التصوف، وفضح باطنهم وتحذير الأمة من شرورهم.

٣- بيان أن العلماء منوط بهم دور كبير في مواجهة كل فكر دخيل وغريب، وذلك بتصحيح الأفكار، ورد الشبهات، وبيان الحق بالحجة

والبرهان الذي يقنع العقل ويشبع العاطفة.

٤- بيان أن الله تعالى قيض لهذه الأمة ولدينها عبر عصورها وفي مختلف أمصارها علماء أجلاء، ينفون عن هذا الدين كل دخيل، ويردون على المخالفين .

الكلمات المفتاحية: بلاد ما وراء النَّهر، التصوف، الحلول والاتحاد، الولي، الحقيقة والشريعة .

The efforts of the country's scientists beyond the river In response to the mystical

Kamal abdelaal tammam abdelaal
Department : Fundamentals of Religion - College of Sharia and Islamic Studies in Al-Ahsa - Imam Muhammad bin Saud Islamic University
E-mail: kaabdelaal@imamu.edu.sa

Abstract

In this research, we shed light on the efforts of the scientists of the country beyond the river to confront Sufism. In the face of its followers who are exaggerated since their appearance in their countries, they warn people against them, and show what they are in terms of deviation and corruption.

They discussed Sufism in many of their deviant beliefs, revealed the shame of Sufism, and their denial intensified over their innovated sects, and countered their falsehoods and deviant beliefs.

The research aims to:

1- **Contributing to the unveiling of the intellectual heritage in the country beyond the river and its stature and scientific literature in the various fields of science and knowledge.**
2- **Explaining the contributions of the scholars of the countries of the country beyond the river in revealing the shame of Sufism, exposing their interior and**

warning the nation against their evils.

3- A statement that scientists have a great role to play in facing every strange and strange thought, by correcting ideas, returning suspicions, and explaining the truth with argument and proof that persuades the mind and satisfies emotion.

4- A statement that God Almighty is the offense of this nation and its religion through its ages and in its various paths, distinguished scholars, who deny this religion every outsider and respond to the violators.

key words: **Beyond the river - Sufism – solutions – union - guardian - truth and Sharia.**

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

فالتصوف هو تلك الحركة الروحية التي تعبر عن نزعة الزهد، والتوكل على الله تعالى – من قبل الراغبين في الخلاص من فتن الدنيا.

ومن ثم فقد ارتبطت – في بدايتها – بمنهج القرآن الكريم، وتوجيهات النبي المعصوم – ﷺ –، ولكن سرعان ما تلقف الفكر الصوفي من يتسم بالجهالة والخرافة، وتسلط عليه من يدعي لنفسه الولاية والقربى من الله تعالى –، وابتعد بأصوله عن القرآن والسنة، وارتكز على أصول جديدة ابتدعها واصطنعها من أفكار غريبة على الفكر الاسلامي الصحيح.

لقد خطا التصوف خطوات واسعة، فبعد أن كان سلوكاً عملياً صار علماً له أصوله وقواعده ومسائله الخاصة به، ومؤلفاته ومصطلحاته، وصارت له مدارس تعنى به، وطرق كثيرة تنتمي إليه.

وصار التصوف من أخطر البدع التي غزت المسلمين في دينهم، فأفسد عليهم كثيراً من مفاهيم الدين وحقائقه، وأحدث في الأمة عبادات وأخلاقاً مباينة لهدي النبي – ﷺ – وأصحابه.

وقد ظهر الغلو في بعض النظريات التي تشكل خطورة على عقيدة المسلم مثل: " الحلول والاتحاد "، و " الفصل بين الحقيقة والشريعة "، و " وحدة الوجود "، و " تفضيل الولي على النبي " وغيرها.

ومن ثم أخذ مفكرو الإسلام ينكرون دعاوى المتصوفة، ويبينوا للمسلمين خطأهم. وكان من هؤلاء علماء بلاد ما وراء النهر الذين قاموا في وجه المتصوفة منذ ظهورهم في بلادهم يحذرون الناس منهم، ويبينون ما هم فيه من انحراف وفساد.

لقد حرص علماء بلاد ما وراء النهر على بيان ما في التصوف من مخالفات شرعية، وسلوكيات مخلة بالدين رغبة منهم في الحفاظ على مجتمعاتهم من البدع والخرافات والأوهام والعقائد الفاسدة.

ولهذا ناقشوا المتصوفة في كثير من عقائدهم المنحرفة، وكشفوا عوار التصوف وتتبعوا ترهاته واشتد نكيرهم على طوائفهم المبتدعة، وردوا أباطيلهم وعقائدهم المنحرفة.

ولوضوح الفكر النقدي في مؤلفات علماء بلاد ما وراء النهر قصدت دراسة جهودهم في هذا الجانب المهم من علم العقيدة فجاء عنوان بحثي:
" **جهود علماء بلاد ما وراء النهر في الرد على المتصوفة** ".

أسباب اختيار الموضوع:

إن من أهم ما دفعني للخوض في خضم هذا البحث ما يلي:

١- المكانة الثقافية والعلمية لبلاد ما وراء النَّهر، وإسهامات رجالات العلم فيها في كافة العلوم والفنون كالتفسير والتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والفلسفة.

٢- أن علماء بلاد ما وراء النهر قد أولوا مناقشة الصوفية اهتماماً كبيراً؛ فأفردوا لها حيزاً في مؤلفاتهم ومناظراتهم، وفي دروسهم وتعليمهم.

٣- عناية علماء بلاد ما وراء النهر بحفظ العقيدة والدفاع عنها، وكشف

الأفكار المنحرفة وإبطالها، وبيان زيغها، وبعدها عن المنهج القويم.

مشكلة البحث:

وتكمن مشكلة البحث في السؤال الرئيس التالي: ما موقف علماء بلاد ما وراء النهر من التصوف ؟ ويتفرع من هذا السؤال الأسئلة الفرعية التالية:

١- كيف نظر علماء بلاد ما وراء النهر إلى التصوف ؟

٢- ولماذا تحدثوا عن الطرق الصوفية ؟

٣- وما أشهر الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر؟

٤- وما أهم دعاوى المتصوفة التي تعقبوها بالإبطال والنقد والتفنيد؟

٥- وما موقف علماء بلاد ما وراء النهر من دعوى الحلول والاتحاد؟

حدود البحث:

أما عن حدود البحث الموضوعية فتقتصر على بيان موقف علماء بلاد ما وراء النهر من الانحرافات العقدية لدى المتصوفة، وإبراز جهودهم النقدية، وردودهم العلمية لبعض النظريات التي تشكل خطورة على عقيدة المسلم.

أهداف البحث:

وتتحدد أهداف البحث في:

١- المساهمة في كشف النقاب عن التراث الفكري في بلاد ما وراء النَّهر وما يحويه من قامات ومؤلفات علمية في مختلف ميادين العلم والمعرفة.

٢- بيان إسهامات علماء بلاد ما وراء النَّهر في كشف عوار التصوف،

وفضح باطنهم وتحذير الأمة من شرورهم.

٣- بيان أن العلماء منوط بهم دور كبير في مواجهة كل فكر دخيل وغريب، وذلك بتصحيح الأفكار، ورد الشبهات، وبيان الحق بالحجة والبرهان الذي يقنع العقل ويشبع العاطفة.

٤- بيان أن الله تعالى قيض لهذه الأمة ولدينها عبر عصورها وفي مختلف أمصارها علماء أجلاء، ينفون عن هذا الدين كل دخيل، ويردون على المخالفين.

منهج البحث:

انتظمت منهجية البحث على الأساسيين: الاستقرائي والتحليلي، وذلك بتتبع النصوص والأدلة ذات العلاقة بأهداف الدراسة من أقوال علماء بلاد ما وراء النهر، ليتم عرض الحقائق أولاً عرضاً صحيحاً في مدلولاتها وفي تأليفها، وحتى يتم التوصل حينئذ إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة، مع الالتزام بضوابط البحث العلمي، ومن ذلك:

- عزو الآيات إلى مواضعها من القرآن الكريم.
- تخريج الأحاديث النبوية تخريجاً حسب القواعد والأصول المتبعة.
- جمع مادة البحث من مصادرها الأصلية، مع توثيق نسبة كل قول لقائله.
- اخترت أشهر المسائل العقدية التي انحرفت فيها المتصوفة حتى صارت من لوازمها، أو مما اشتهرت به.
- راعيت في المسائل المختارة عند المتصوفة المسائل التي تعقبها علماء بلاد ما وراء النهر في مصنفاتهم.

- عنيت الدراسة بذكر التعريفات للمصطلحات التي يمكن أن تكون غامضة.
- راعيت في ترتيب مباحث البحث الاتزان في الكم، وما خرج عن هذه السمة إنما فرضته طبيعة المادة العلمية.
- ذكرت تاريخ الوفاة للأعلام المذكورين في صلب البحث.
- ترجمت للأعلام المذكورين في صلب البحث ترجمة موجزة تكفي للتعريف بهم.

خطة البحث:

جاء التكوين العلمي للبحث في مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أسباب اختياري لهذا للموضوع، وأهدافه، ومنهج البحث، وخطته.

المبحث الأول: موقف علماء بلاد ما وراء النهر من التصوف.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: علماء بلاد ما وراء النهر والتصوف.

المطلب الثاني: الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر.

المبحث الثاني: موقف علماء ما وراء النهر من دعوى الحلول والاتحاد.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الحلول والاتحاد عند المتصوفة.

المطلب الثاني: نقد علماء ما وراء النهر دعوى الحلول والاتحاد.

المبحث الثالث: موقف علماء ما وراء النهر من دعوى تفضيل الولي على النبي.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى الولي.

المطلب الثاني: الولاية عند الصوفية.

المطلب الثالث: نقد علماء ما وراء النهر دعوى تفضيل الولي على النبي.

المبحث الرابع: موقف علماء ما وراء النهر من دعوى الحقيقة غير الشريعة.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: معنى الحقيقة والشريعة عند الصوفية.

المطلب الثاني: نقد علماء ما وراء النهر دعوى الحقيقة غير الشريعة.

الخاتمة: وذكرت فيها أهم نتائج البحث.

الفهارس: وذكرت فيها فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول
موقف علماء بلاد ما وراء النهر من التصوف

الصوفية - كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية [(١)] (ت: ٧٢٨هـ) مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم[(٢)].

ومن ثم تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت " الصوفية والتصوف ". وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء.

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني الشيخ الإمام العلامة الفقيه المفسر الحافظ المحدث، شيخ الإسلام نادرة العصر، ذو التصانيف والذكاء، تقي الدين أبو العباس ولد بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، رحمه الله تعالى. [انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ١/١٦٨، فوات الوفيات: ١/٧٤].

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى: ١١/١٨، ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م].

فما موقف علماء بلاد ما وراء النهر من التصوف؟ وبم حكموا علـــى المتصوفة؟ وكيف نظروا إلى ما حواه التصوف من طقوس وعقائد باطلـــة؟ وهل عدَّ علماء بلاد ما وراء النهر المتصوفة مـــن المبتدعـــة الضـــلّال، أم أغدقوا عليهم بالمدح والثناء، واستحسنوا طريقهم وسبيلهم؟

المطلب الأول

علماء بلاد ما وراء النهر و التصوف

يلاحظ في حديث علماء بلاد ما وراء النهر عن التصوف أنهم يفرقون بين مسميين:

الأول: مسمى الصوفية: يعرف أبو اليسر البزدوي[(١)] (ت: ٤٩٣هـ) الصوفية " بأنهم العلية الأتقياء البررة وأصحاب الكرامات يكونون أبدا على الطهارة، ويتبعون سنن النبي - ﷺ - في المشرب والمأكل واللباس والكلام والنيام والعبادة "[(٢)].

ويتفق الأندكاني [(٣)] (ت: ٧٧٧هـ) مع البزدوي في تعريفه فيقول: " إن

---

(١) هُوَ العَلاَّمَةُ شَيْخُ الحَنَفِيَّة بَعْد أَخِيْهِ الكَبِيْر، أَبُو اليُسْرِ مُحَمَّدُ بنُ محمد بن الحسين ابن المُحَدِّث عبد الكَرِيْم بن مُوْسَى بن مُجَاهِدٍ النَّسفِي. يُلَقَّبُ بِالقَاضِي الصَّدْر، وبَزْدَة: قَلْعَة حصينَة. قَالَ عُمَرُ بنُ مُحَمَّدٍ فِي "القَنْد": "كَانَ أَبُو اليُسْرِ إِمَامَ الأَئِمَّة عَلَى الإِطلاَق، وَالموفودَ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاق، مَلأَ الكَوْن بِتَصَانِيْفِه فِي الأُصُوْل وَالفُرُوْع، وَوَلِيَ قَضَاءَ سَمَرْقَنْد، أَملَى الحَدِيْث مُدَّة." تُوُفِّيَ بِبُخَارَى فِي تَاسع رجَب سَنَةَ ثَلاَثٍ وَتِسْعِيْنَ وأربع مائة. [انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١٤/١٢٢].

(٢) ينظر: أصول الدين ص ٢٦١، أبو اليسر البزدوي، تحقيق: د/ هانز بيتر لنس، المكتبة الأزهرية للتراث ٢٠٠٣م.

(٣) كَمَال الدّين مُحَمَّد بن ابى مُحَمَّد حجاج بن يُوسُف ابْن عماد بن الغازى الأتدكانى (بِفَتْح الْهمزَة وَضم الدَّال وَفتح الْكَاف وفى آخِره نون قَرْيَة من قرى فرغانة) ولد فِي الْمحرم سنة ٧٢٦ وَنَشأ بهَا ثمَّ دَار الْبِلَاد وَنزل بِلَاد العراقين وأذربيجان. صنف كتاب صدق الْكَلَام فِي علم الْكَلَام فِي مُجَلد لطيف. [انظر: هدية العرفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل البغدادي: ٢/١٧٠].

الصوفية من علية العارفين وخلص عباد الله المخلصين" (١).

<u>الثاني: مسمى المتصوفة:</u> ويعرفهم علماء بلاد ما وراء النهر بأنهم: هم المتشبهة بالصوفية وليسوا منهم.

يقول الأندكاني (ت: ٧٧٧هـ): " لا تظنن في بديهة السماع أن المتصوفة هم الصوفية، فشتان وهيهات؛ فإن الصوفية من علية العارفين وخلص عباد الله المخلصين، والمتصوفة من شر الشياطين سببا، ومن أظلم من افترى على الله كذبا " (٢).

ومن هذا يتبين لنا أن علماء بلاد ما وراء النهر قسموا التصوف إلى اتجاهين:

<u>الاتجاه الأول: التصوف المعتدل (٣):</u> وأكثرهم – كما ذكر علماء بلاد ما وراء النهر – من أهل السنة والجماعة، قال أبو اليسر البزدوي (ت: ٤٩٣هـ): " وأما الصوفية فأكثرهم من أهل السنة والجماعة، وفيهم من يكون صاحب الكرامة" (٤).

وهم الذين دانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس

---

(١) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٢/٨١٠، كمال الدين الأندكاني، دراسة وتحقيق: حافظ عاشور، رسالة ماجستير، مخطوط بكلية دار العلوم، رقم ١٥٨٢.

(٢) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٢/٨١٠.

(٣) يلاحظ أن العديد من العلماء والباحثين يقسم التصوف إلى: ١- التصوف السني، ٢- التصوف البدعي، ولكن فد يعترض على هذا التقسيم أن بعض الصوفية- حتى من داخل الاتجاه الذي أطلق عليه التصوف السني – غالى كثيرا في العمل، والجوع، وغير ذلك مما يخالف الرسول – ﷺ –، لذلك اخترت تصنيفه إلى معتدل، ومتطرف.

(٤) ينظر: أصول الدين ٢٥٩، أبو اليسر البزدوي.

فيه تمثيل ولا تعطيل، ومن أهم سماتهم:

١- الالتزام الدقيق بالتطبيق لأركان الإسلام، وفرائضه وآدابه وأخلاقه.

٢- الإتباع، أو ربط الحقيقة بالشريعة.

ويؤكد أستاذنا الدكتور/ السيد الحجر هذه السمة فيقول: " والواقع أن تأكيد الصوفية على ضرورة التمسك بالكتاب والسنة، والتأسي برسول الله - ﷺ - يعتبر من الخصائص التي لازمت التصوف الإسلامي في نشأته وفي مراحل تطوره، لا سيما ذلك التيار الذي أطلق عليه اسم التيار،أو الاتجاه السني في التصوف" (١).

ويلخص الأندكاني (ت: ٧٧٧هـ) سمات هذا الاتجاه فيقول: " وهؤلاء لا يعتقدون مذهباً ردياً، ولا ينازعون أحداً في شيء على سبيل التعصب، ولا يدعون أحداً إلى أنفسهم، وهم في أصول الاعتقاد ليسوا بضالين ولا مضلين" (٢).

ويرى أبو المعين النسفي(٣) (ت: ٥٠٨هـ) أن "أكثر رجال الصوفية الذين كانت بحور علومهم زاخرة،

وكراماتهم فيما بين الخلق ظاهرة، كانوا على هذا المذهب – أي مذهب

---

(١) ينظر: التصوف الا سلامي بين الإتباع والابتداع ص ٦٢ لأستاذنا الدكتور/ السيد الحجر، دار الهانئ ٢٠٠٤هـ.

(٢) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٢/٨٣١.

(٣) مَيْمُون بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُعْتَمد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مَكْحُول بْـن الْفضـل أَبُو الْمعِين النَّسَفِيّ المكحولي الإِمَام الزَّاهِد مُصَنف التَّمْهِيد لقواعد التَّوْحِيد وتبصرة الْأَدِلَّة، توفي سنة ثمان وخمسمائة. [انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر القرشي: ٢/١٨٩].

أهل السنة والجماعة – وقد ذكر هذا عنهم "الكلاباذي"[١] فيما حكى عن مذهبهم وعقيدتهم في كتابه المسمى بالتعرف لبيان مذهب التصوف "[٢].

وقد دافع علماء بلاد ما وراء النهر عن هذا النوع من التصوف – أي المعتدل – وطالبوا بعدم الطعن فيه يقول "أبو اليسر البزدوي" (ت: ٤٩٣هـ): "وينبغي أن يترك الإنسان الطعن في الصوفية، ويقطع لسانه عنهم فإن فيهم خيار الأمة"[٣].

<u>الاتجاه الثاني: التصوف المتطرف</u>: وهذا النوع هو ما تصدى له علماء بلاد ما وراء النهر بالنقد والتفنيد، ووصفوه بأنه مذاهب ردية نابعة من الأهواء المختلفة والمتفرقة، والمفرقة قال أبو اليسر البزدوي في حديثه

عن التصوف في بلاد ما وراء النهر: "إلا أنه قد ظهر فيه مذاهب ردية أكثرها ضلال وبدعة"[٤].

ولم يكتف علماء بلاد ما وراء النهر ببيان أن عاقبة هذا الاتجاه المتطرف من المتصوفة البوار والردى والهلاك، والسقوط في الهاوية؛ بل

---

(١) أَبُو نَصْرٍ، أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الحُسَيْنِ بنِ الحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ رُسْتُم، البُخَارِيُّ الكَلاَبَاذِيُّ، وكَلاَباذ: محلَّةٌ مِنْ بُخَارَى. وُلِدَ فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ وَعِشْرِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ. قَالَ المُسْتَغْفِرِي: "هُوَ أَحْفَظُ مَنْ بِمَا وَرَاء النَّهر اليَوْمَ فِيمَا أَعْلَم".تُوفِّي سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ. [انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١٢/ ٥٣٣ – ٥٣٤].

(٢) ينظر: تبصرة الأدلة: ٣٦٠/١، أبو المعين النسفي، تحقيق: كلود سلامة، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ١٩٩١م.

(٣) ينظر: أصول الدين ٢٦١، للبزدوي

(٤) ينظر: السابق ٢٦١.

بينوا أن هذا الاتجاه بآرائه المتطرفة وأفكاره المغالية هم شر عباد الله، وقد مالوا إلى الزندقة(١).

وكشف علماء بلاد ما وراء النهر عن التطرف الفكري لهذا الاتجاه وتأثره بالمذاهب الهدامة يقول أبو اليسر البزدوي" (ت: ٤٩٣هـ):" وفي الصوفية قوم يدعون الإلهام، ويقولون: حدثني قلبي عن ربي، ثم يذكرون بعض ما وضعه القرامطة (٢) من الإشارات الفاسدة بالألفاظ الهائلة يغرون بها العامة، وجعلوا ذلك مكسبة لأنفسهم، وأنكروا الشرائع أجمع"، فهؤلاء شر خليقة الله تعالى(٣).

وحدث البزدوي" عن واحد من فقهاء بخارى أنه سال أحد المتصوفة "لم تركت مذهب " أبي حنيفة" وترفع اليدين عند الركوع ؟ وعند رفع الرأس من الركوع، فقال: إني رأيت رسول الله يصلي بأصحابه وغيرهم يرفعون

---

(١) ينظر: أصول الدين ص ٢٦١، للبزدوي

(٢) القرامطة لقبوا بهَا نِسْبَة الى رجل يُقَال لَهُ حمدَان قرمط كَانَ أحد دعاتهم فِي الِابْتِدَاء فَاسْتَجَاب لَهُ فِي دَعوته رجال فسموا قرامطة. وهي دعوة إسماعيلية باطنية ابتدأت من سواد الكوفة على يد هذا الضال، وانتشرت، وعظمت مصيبتها حتى صارت تهدد الخلافة الإسلامية، وقد اتخذوا الأحساء عاصمة لهم، وهاجموا الحجيج، وقتلوا المسلمين في الحرم، وسرقوا الحجر الأسود زمنا، وهدف دعوتهم نشر الإلحاد، وإبطال الشرائع، عن طريق الدعوة السرية، وأخذ المواثيق والعهود للإمام. [انظر: التبصير في الدين ص٢٢، وفضائح الباطنية الغزالي ص١٢، والفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٦٦، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص٩٤].

(٣) ينظر: أصول الدين ٢٦١.

أيديهم عند الركوع، وعند رفع الرأس من الركوع، فقال: فقلت له: رأيته في المنام ؟ قال: لا بل في اليقظة"[1].

وقد بين علماء بلاد ما وراء النهر ما ترتب على اعتقاد طريقة المتجاهلة المتصوفة من آثار خطيرة حدت بهم إلى إظهار المنكرات، والتخلي عن طريق الصلاح، فقالوا: وقد أفضى بهم هذا الاعتقاد إلى أن تركوا الشرائع، ولبسوا ثياب الفساق، وغيروا زي الصلحاء فيشتغلون ببعض المنكرات ....، وترك الجماعات، والتكلم بترهات المتصوفة والمتزندقة؛ ذهاباً إلى أنهم بهذه الملاهي والمناهي تركوا المراءاة[2].

(١) ينظر: أصول الدين ص ٢٦٢.

(٢) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٨١٤/٢.

المطلب الثاني
الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر

أفرد غير واحد من علماء بلاد ما وراء النهر في مصنفاتهم حيزاً للحديث عن الطرق الصوفية التي ظهرت في بلادهم. إلا أنهم في حديثهم عن هذه الطرق لم يوردوها تحت أسماء شيوخها، وإنما أوردوها تحت أسماء مبادئها.

والذي دفعهم للحديث عن هذه الطرق في مصنفاتهم هو حضور أتباعها وظهورهم في بلاد ما وراء النهر كبخارى، وفرغانة وغيرها، قال أبو اليسر البزدوي (ت: ٤٩٣هـ):" إنما ذكرت هؤلاء لأنه ظهر في بلادنا بعض هؤلاء خصوصاً بديار" فرغانة "[١]. وقد يحضرون " بخارى " أحياناً ثم يخرجون إذا علمنا بهم"[٢].

وقد ذكر علماء بلاد ما وراء النهر الطرق الصوفية ومقالاتهم، وأهمها:

١- **الحبية:**

سموا بذلك؛ لأنهم زعموا أن الله – تعالى – إذا أحب عبداً رفع عنه الخطاب والتكليف، فتسقط عنه العبادات، ولا يبقى في حقه حظر؛ فلا

(١) من أقاليم ما وراء النهر، تقع على نهر سيحون، ينسب إليها عدد من العلماء منهم فخر الدين حسن بن منصور الفرغاني من كبار أئمة الحنفية. وتقع فرغانة اليوم أواسط آسيا، و تقتسمه كل من أوزبكستان و قيرغيزستان و طاجيكستان. انظر: كتاب تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير: ١٨٢/٢

(٢) ينظر: أصول الدين، ٢٥٩ للبزدوي

يصلون، ولا يصومون، ولا يسترون العورة، ولا يمتنعون عن الزنا، وشرب الخمر، ولا عن محظور ما[1].

وقد أفضى بهم هذا القول إلى أن قالوا: تحل لنا النعم كلها – أي تناولها أكلا وشربا – وإنما القول بالحلال والحرام لا يستقيم في حق الخواص، بل هو في حق العوام.

ومن مذهبهم أنهم يزعمون أنا نرى الله –تعالى– في الآخرة في أحسن صورة، ويزعمون أنا نراه كما يرى بعضنا بعضا، يريدون به التجسيم[2].

٢- <u>الأوليائية:</u>

سموا بذلك؛ لأنهم يقولون: إن الأولياء أفضل من الأنبياء والملائكة أجمعين ومن مذهبهم أنهم يقولون: إن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر، وإن الأولياء عملوا بعلم الباطن وبالحقيقة، والأنبياء عملوا بعلم الظاهر وبالشريعة، ولن يبلغ الأنبياء درجة الأولياء.

وهؤلاء يقولون – أيضاً – إذا بلغ الإنسان في العبادة الدرجة القصوى وفي الولاية الرتبة العليا لا يبقى في حقه خطاب الإيجاب ولا خطاب الحظر ويحل له كل شيء [3].

٣- <u>الإباحتية:</u>

وسموا بذلك؛ لأنهم يزعمون أن جميع الأشياء مباحة للإنسان، ويستشهدون بقوله – تعالى – ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

---

(١) ينظر: السابق، ص ٢٥٩، للبزدوي.

(٢) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٨١١/٢.

(٣) ينظر: أصول الدين، ص ٢٥٩ للبزدوي.

[سورة البقرة، الآية:٢٩] فإذا خلق جميع ما في الأرض لنا، فكل شيء يوجد في وجه الأرض من الأجسام والأعراض مباح لنا. وبهذا الطريق يبيحون شرب الخمر والكذب وغير ذلك(١).

وذكر الصابوني(٢)(ت: ٥٨٠هـ) أنهم قالوا كالمرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة(٣).

وقد سماهم أبو المعين النسفي(ت: ٥٠٨هـ) الخلعاء طاوعوا أنفسهم فيما يميلون إليه(٤).

٤- **الحلولية:**

وسموا بذلك لأنهم يقولون بحلول الله – تعالى – في وجوه بعض العرفاء من أوليائه عند شدة المجاهدة وكثرة الرياضة، فيصير هو هو وهو هو، فمرة يمثلون المحب والمحبوب بالدائرة التامة التي يكون وسطها خط مستو، وذلك الخط هو الحجاب بينهما، فلما بلغت المجاهدة مبلغها ارتفع

---

(١) ينظر: بحر الكلام ص ٢٩٧ أبو المعين النسقي، تحقيق ولي الدين الفرفور، مكتبة دار الفرفور: ط٢/ ٢٠٠٠م.

(٢) أَحْمد بن مَحْمُود بن بكر الصَّابُونِي أَبُو مُحَمَّد الملقب نور الدّين الإِمَام صَاحب الْبِدَايَة فِى أصُول الدّين توفّي وَقت صَلَاة الْمغرب من لَيْلَة الثُّلَاثَاء سادس عشر صفر سنة ثَمَانِينَ وَخمْس مائَة وَدفن بمقبرة الْقُضَاة السَّبْعَة ببخارى تفقه عَلَيْهِ شمس الأئمة مُحَمَّد الكردري – رحمهمَا الله تَعَالَى –. [انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية: ١/١٢٤].

(٣) ينظر: البداية من الكفاية ص ١٤٠، نور الدين الصابوني، تحقيق: د/ فتح الله خليف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩م.

(٤) ينظر: تبصرة الأدلة: ١/٤٤٣، لأبي المعين النسفي.

الخط وصار جميع الدائرة شيئاً واحداً.

ومرة يمثلون المحب بالدائرة النازلة من السحاب والمحبوب بالبحر، فإذا وقعت القطرة في البحر تلاشت وفتتت وصارت بحراً، فيتحد المحب والمحبوب[١].

وقال البزدوي:"هم قوم يستبيحون الرقص والغناء، والنظر إلى الشاب الأمرد المليح الصبيحح، ويقولون: قد حلت بهذا الأمرد الصبيح صفة من صفات الباري، فنحن نحبه ونعانقه لأجل تلك الصفة[٢].

٥- **الحورية:**

نسبوا أنفسهم إلى الحور العين، لأنهم زعموا أن الحور العين والنعيم والقصور وغيرها مما في الجنة، إنما هي موعودة غدا إلى يوم القيامة للعوام من أهل الإيمان، أما الخواص فهذه المعاملة في حقهم بالنقد دون النسيئة، وأن الحور العين ينزلن إليهن فيعاملهن معاملة الأزواج للزوجات.

وقد علق أبو اليسر البزدوي (ت: ٤٩٣هـ) على أفعالهم فقال: "وقد كان إبليس جامعهم، لشر صنيعهم وسوء عقيدتهم" [٣].

٦- **الواقفية:**

يرى علماء بلاد ما وراء النهر أنهم سموا بذلك لأمرين:

الأول: أنهم توقفوا في معرفة الله – تعالى – فادعوا أن الله تعالى – ليس بمعروف لأحد، ولا يعرف ذاته تعالى إلا هو، وقالوا إن العجز عن

(١) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٨١٢/٢، للأندكاني.

(٢) ينظر: أصول الدين ص ٢٥٩، للبزدوي.

(٣) ينظر: أصول الدين ص ٢٥٩، للبزدوي.

المعرفة هو المعرفة.

الثاني: أنهم اعترفوا بأنه تعالى متكلم بكلام قائم بذاته، وتوقفوا أحادث هو أم قديم ؟ أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ [(١)]

قال أبو اليسر البزدوي (ت: ٤٩٣هـ): " ومنهم " الواقفية " يقولون: إنه لا يمكن معرفة الله تعالى، وتوقفوا في معرفة الله تعالى وقالوا أبياتاً بالفارسية والعربية فيها:

لا يعرف الحق إلا من يعرفه لا يعرف القديم المحدث الفاني" [(٢)].

٧- المتجاهلة:

سموا به لأنهم لا يأتون بالشرائع ويخالفونها، فإذا اعترضت عليهم لم تفعلون كذا ؟ أو لم لا تفعلون كذا ؟ قالوا: نحن نعلم أن موسى قتل القبطي، وأن الخضر قتل الغلام وخرق سفينة المساكين، ولا نعلم شيئا آخر. وكذا يذكرون زلة كل نبي، ويقولون: أنهم فعلوا ما فعلوا؛ إرادة ترك الرياء في العمل.

ومن مذهبهم أنهم يقولون ترك الرياء واجب، فإذا اشتغل العبد بالطاعة لا يخلو من الرياء، والرياء في الدين كالنار في الحطب[(٣)].

قال أبو اليسر البزدوي (ت: ٤٩٣هـ): " هم قوم يضربون المزامير، ويشربون الخمر، ويأتون ببعض الفواحش، ويلبسون ثياب الفسقة،

---

(١) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٢/٨١٣ – ٨١٤، للأندكاني.

(٢) ينظر: أصول الدين ص ٢٦٠، للبزدوي.

(٣) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٢/٨١٤.

ويقولون: ترك الإرادة واجب. وبمثل هذا نترك الإرادة" [١].

٨- **الإلهامية:**

سموا بذلك؛ لأنهم يدعون أنهم ملهمون من الله–تعالى–، وهم أصناف:

أ- صنف منهم يزعمون العروج بهم إلى الله – تعالى – ومكالمتهم إياه – تعالى –، ويقولون: حدثني قلبي عن ربي. وجعلوا ذلك مكسبة لأنفسهم، وأنكروا الشرائع أجمع. فهؤلاء شر الخليقة أجمع[٢].

ب- وصنف آخر منهم يأمرون أتباعهم وأصدقائهم بالإعراض عن الاشتغال باكتساب العلم وتتبع الكتب، وينكرون إمساك كتب التفسير والأحاديث والفقه وغيرها لديهم، احتجاجا بأنها بين العبد وربه حجاب، والحجاب يجب رفعه ورفضه.

ج- وصنف آخر منهم يبالغون في هذا الاعتقاد، ويأمرون الطالبين بإحراق المصحف والكتب ويقولون: الحجاب إذا رفع وبقي، بقي القلب متعلقا بتحصيله ثانياً، وذلك أيضاً حجاب، وإذا رفع بالإحراق حتى لم يبق منه عين ولا أثر لم يبق للقلب تعلق إلا بطلب المعبود المقصود، وتجرد الباطن للخلوة والرياضة وتفرغ لذكره.

وقد أفضى بهم هذا الاعتقاد إلى أن قالوا: ما لي والشرع، فقد حُرِم أهل الشرع الأنوار القدسية[٣].

تلك لمحة عن الطرق الصوفية ضمنها علماء بلاد ما وراء النهر

---

(١) ينظر: أصول الدين ص ٢٦٠، للبزدوي.

(٢) ينظر: السابق ص ٢٦١، للبزدوي.

(٣) ينظر: صدق الكلام: ٢/٨١٤ – ٨١٥.

مصنفاتهم يلاحظ فيها ما يلي:

أولاً: اهتمام علماء بلاد ما وراء النهر ببيان أن السمة الرئيسة في الفرق بين الاتجاه المعتدل والاتجاه المتطرف في التصوف هي الإتباع، بمعنى أن الاتجاه المعتدل تكاد هذه السمة تهيمن على كل أقوال الزهاد وأفعالهم، بل كانوا في كل ما يصدرون مرتبطين بالقرآن والكريم، متابعين لسنة النبي - ﷺ -(١).

وهذا ما يؤكده علماء بلاد ما وراء النهر يقول البزدوي:" يكونون أبدا على الطهارة، ويتبعون سنن النبي - ﷺ - في المشرب والمأكل واللباس والكلام والنيام والعبادة" (٢).

أما الاتجاه المتطرف فقد غلب عليه الابتداع والمغالاة والمخالفة للكتاب والسنة، لذلك يصفهم البزدوي" بأنهم مبتدعة ضالة يخالفون كتاب الله - تعالى - وسنة النبي - ﷺ -(٣).

ثانيا: الاهتمام ببيان الطوائف الردية في التصوف والتحذير من مبادئها ومقالاتها، وكشف زيغها وضلالها. فقد ذكر "البزدوي" أن الحبية شر عباد الله وأن مذهبهم مال إلى الزندقة". وقال عن الإلهامية" فهؤلاء شر خليقة الله تعالى"(٤).

ثالثا: أن علماء بلاد ما وراء النهر تحلوا بالإنصاف فلم يقصروا

---

(١) ينظر: التصوف الإسلامي بين الإتباع والابتداع ص ٤٣.
(٢) ينظر: أصول الدين ص ٢٦١، للبزدوي.
(٣) ينظر: السابق ص ٢٤١، للبزدوي.
(٤) ينظر: أصول الدين ص ٢٤١، للبزدوي .

حديثهم على الجانب الهدام في التصوف،

وإنما تحدثوا عن الجانب البناء وطالبوا كافة الفرق والمذاهب بالإسهام في دفعه وتشجيعه بدلاً من الطعن فيه ونقض أحواله ومقالاته.

ولهذا علماء بلاد ما وراء النهر لم ينقدوا التصوف بما هو تصـــوف، وإنما نقدوا ما جرى فيه من انحرافات عن طريق التصوف الصحيح.

المبحث الثاني

موقف علماء ما وراء النهر من دعوى الحلول والاتحاد

ظهرت في بلاد ما وراء النهر مذاهب منحرفة لا علاقة لها بالإسلام أصلا، ولا تمت إليه بسبب، وإنما هي آثار أجنبية دخيلة على مسيرة الحياة الروحية في الإسلام. وقد تصدى علماء ما وراء النهر لهذه الانحرافات بالنقد والتفنيد، ومنها الحلول والاتحاد.

المطلب الأول

الحلول الاتحاد عند الصوفية

قسم الجرجاني[1] (ت: ٨١٦هـ) الحلول إلى قسمين:

أ- **الحلول السرياني:** عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الأخر، كحلول ماء الورد في الورد فيسمى الساري حالا، والمسرى فيه محلاً.

ب- **الحلول الجواري:** عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفا للآخر، كحلول الماء في الكوز[2].

---

(١) علي بن محمد بن علي الحنفي، المعروف بالشريف الجرجاني صاحب الكتاب المعروف بالتعريفات، له نحو خمسين مصنفا، منها: شرح مواقف الإيجي، ومقاليد العلوم، و تحقيق الكليات، وشرح السراجية، في الفرائض، ورسالة في تقسيم العلوم، توفي سنة ٨١٦هـ. [انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: ١٩٦/٢].

(٢) ينظر: التعريفات ص ٩٢، الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١/ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

أما الحلول - عند أصحابه - فمعناه: امتزاج بين الله والعالم أو جزء منه[1].

والذي يفهم من تعريف الحلول أن يحل الله - تعالى - في الإنسان وفي غيره من الكائنات، فإذا تجرد الإنسان من كل أثر من آثاره وصفة من صفاته ذهب المحل وهو الجسم، وبقي الحال وهو الله.

أما الاتحاد فقد ذكر له "الجرجاني" معنيين:

أ- **الاتحاد**: هو تصيير الذاتين واحدة، ولا يكون إلا في العدد من الاثنين فصاعدا.

ب- **الاتحاد**: هو امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئا واحدا لاتصال نهايات الاتحاد[2].

أما الاتحاد - عند أصحابه فيعنون به: اتحاد الإله مع العالم، بحيث يصير الاثنان شيئاً واحدا[3].

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) أن الحلولية نوعان فقال: "وهؤلاء قد يسمون " الحلولية " و " الاتحادية ". وهم صنفان: - " قوم " يخصونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء. كما يقوله النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي - ﷺ - ونحوه؛ وقوم في أنواع من المشايخ، وقوم في بعض الملوك وقوم في بعض الصور الجميلة؛ إلى غير

(١) ينظر: التصوف في الميزان ص ٦٧، د/ مصطفى غلوش، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د ت.

(٢) ينظر: التعريفات ص٨.

(٣) ينظر: التصوف في الميزان: ص ٦٨، د/ مصطفى غلوش.

ذلك من الأقوال التي هي شر من مقالة النصارى. وصنف يعمون فيقولــون بحلوله أو اتحاده في جميــع الموجــودات - حتــى الكــلاب والخنــازير والنجاسات وغيرها – كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومــن تــبعهم مــن الاتحادية: كأصحاب ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمســاني ... وغيرهم" [(١)].

وقد نشأت هذه الفكرة عند الصوفية نتيجة تــأثرهم بأفكــار وثقافــات أجنبية[(٢)]؛ إذ أن الأصول التي استقى منهــا الحلوليــة أصــول مشــبوهة، وأقوالهم في ذلك غريبة على العقل المسلم في معناها ومغزاها.

فما يتردد في تراث الحلاج[(٣)] (ت: ٣٠٩هـ) مثلا مــن ألفــاظ مثــل: اللاهوت والناسوت، وحلول الأول في الثاني يدل على تأثره بفكر أجنبي في نظريته في الحلول[(٤)].

وهذا ما يوكده بعض الباحثين بقوله: "إن في مذهب الحلاج إشارة إلى

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ٣/٣٩٢ – ٣٩٣.

(٢) ينظر: التصوف الإسلامي بين الإتباع والابتداع ص ٨١.

(٣) هُوَ: الحُسَيْنُ بنُ مَنْصُوْرِ بن مَحْمِيٍّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ ويُقَالُ: أَبُو مُغِيْثٍ – الفَارِسِــيُّ، البيضَاوِيُّ، الصُّوْفِيُّ. تبرَّأَ مِنْهُ سَائِرُ الصُّوْفِيَّة وَالمَشَايخ وَالعُلَمَاء، وَمِنْهُم مِنْ نَسَبَهُ إِلَى الحُلول، وَمِنْهُم مَنْ نَسبَهُ إِلَى الزَّنْدَقَةِ، وَإِلَى الشَّعْبَذَةِ، وَقَدْ تَستَّر بِهِ طَائِفَةٌ مِــنْ ذوِي الضَّلاَل وَالانحلاَل، وَانتحلُوهُ وَروَّجُوا بِهِ عَلَى الجُهَّال.قتــل ســنة ٣٠٩مــن الهجرة. [انظر: سير أعــلام النــبلاء: ١٤/ ٣١٣ – ٣١٤، البدايــة والنهايــة: ١١/١٥١].

(٤) ينظر: من قضايا التصوف ص ١٠٢، لأستاذنا الدكتور/ محمد السيد الجليند، مكتبة الزهراء، ١٩٩٠م.

المذهب القائل بثنائية الطبيعة (الإلهية): اللاهوت والناسوت. وهما اصطلاحان أخذهما الحلاج عن النصارى (السريان) الذين استعملوهما للدلالة على طبيعتي (المسيح) "[1].

ولعل نقطة البدء التي دخل منها المتصوفة إلى القول بالحلول والاتحاد تتمثل في غلوهم في الفناء. فقد انقسم أصحاب الفناء من الصوفية إلى اتجاهين:

الأول: من يقول بالفناء ولكن لا يصل به فناؤه إلى درجة الحلول والاتحاد.

الثاني: من يقول بالفناء، وذهب في فنائه إلى القول بالحلول والاتحاد، وقال بإسقاط التكاليف الشرعية. وبالغ بعضهم في ذلك فادعى أنه الحق. ويمثل هذا الاتجاه أبو يزيد البسطامي[2] (ت: ٢٦١هـ)، والحلاج[3] (ت: ٣٠٩هـ).

---

(١) ينظر: التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٣٣، نيكولسون، ترجمة: د/ أبو العلا عفيفي، لجنة التأليف والنشر، د ت.

(٢) هو: أَبُو يَزِيْدَ طَيْفُوْرُ بنُ عِيْسَى بنِ شَرْوَسَان البِسْطَامِيُّ، أَحَدُ الزُّهَّادُ، قال عنه الذهبي: " وَقَلَّ مَا رَوَى، وَلَهُ كَلاَمٌ نَافِعٌ. من أقواله: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغيروا به حتى تنظروا كيف هو عند الامر والنهى وحفظ حدود الشريعة. مَاتَ سنة إِحْدَى وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ. [انظر: طبقات الصوفية ص٦٨، ميزان الاعتدال في نقد الرجال: ٣٤٦/٢، وسير اعلام النبلاء: ٨٦/١٣].

(٣) ينظر: من قضايا التصوف ص ٨٣ – ٨٤.

أما أبو يزيد البسطامي (ت: ٢٦١هـ)، فيعد من أوائل الذين تكلموا في الفناء والاتحاد؛ وإن كان بعض الباحثين يعتبره أول من أدخل في التصوف فكرة وحدة الوجود التي كانت شائعة في عهده في أنحاء فارس حتى زمن الساسانيين. إلا أن أستاذنا الدكتور "الجليند" يؤكد أن الآثار المروية عن " أبي يزيد " تدل على مذهبه في الاتحاد وليس في وحدة الوجود [١].

وقد تردد في تراث البسطامي عبارات وكلمات تدل على مذهبه في الاتحاد منها قوله: "سبحاني ما أعظم شأني"، "العاشق والعشق والمعشوق واحد"، "إن الحق مرآة نفسي لأنه هو الذي يتكلم بلساني"، "أما أنا فقد فنيت"، "يامن أنت أنا". كذلك كلمات مثل: المحو، محو الرسوم، بقاء الهوية، غيبة الآثار[٢].

قال البسطامي: "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك!! فقلت: زيني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا"[٣].

أما الحلاج (ت: ٣٠٩هـ) فإن الباحثين يكاد يتفقون في نسبة نظرية

---

(١) ينظر: من قضايا التصوف ص٩٨.

(٢) ينظر: تذكرة الأولياء، فريد الدين العطار: ١٨٣ - ٢٣٦، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار المكتبي للطباعة والنشر ٢٠٠٨م.

(٣) ينظر: اللمع ص ٤٦١، السراج، تحقيق: د/ عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور، دار الكتب الحديثة ١٩٦٠م.

الحلول والاتحاد إليه [١]، بل نجد منهم من يثبت للحلاج أولية القول بنظرية الحلول فيقول: "وعلى يد الحلاج نشأت نظرية الحلول "[٢].

قال الاصطخري[٣] (ت: ٣٤٦هـ):" واشتهر ذكر الحسين بن منصور المعروف بالحلّاج، وكان رجلاً حلاجاً ينتحل النسك، فما زال يرتقى به طبقاً عن طبق حتى انتهى به الحال إلى أن زعم: أن من هذّب في الطاعة جسمه، وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه، وصبر على مفارقة اللذات، وملك نفسه في منع الشهوات، ارتقى به إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يتنزّل في درج المصافاة، حتى يصفو عن البشرية طبعه، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب، حلّ فيه روح الله، الذي كان منه عيسى بن مريم، فيصير مطاعاً، فلا يريد شيئاً إلا كان من كلّ ما ينفذ فيه أمر الله، وأن جميع فعله حينئذ

(١) ينظر: تفاصيل إثبات الحلول عند الحلاج" نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" للدكتور/ النشار، و"ظهر الإسلام" لأحمد أمين، "فصول في التصوف" لأستاذنا الدكتور/ حسن الشافعي، و" من قضايا التصوف" لأستاذنا الدكتور/ الجليند، و "نظرات في التصوف" لأستاذنا الدكتور/ عبد الحميد مدكور، و"التصوف بين الإتباع والابتداع" لأستاذنا الدكتور/ السيد الحجر.

(٢) ينظر: أسس الفلسفة ص ٤٠٩، د/ توفيق الطويل، ط٢، مكتبة النهضة المصرية: ١٩٥٥م.

(٣) هو: إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الْفَارِسِي أَبُو إِسْحَاق الاصطخري الْكَرْخِي نَشأ باصطخر (فِي إيران) وَقَامَ بسياحة طَاف بهَا بِلَاد الْعَرَب وَبَعض بِلَاد الْهِنْد ووصفته المصادر بِأَنَّهُ جغرافي رحالة من الْعلمَاء لم تكن مصَادر علم الْبلدَانِ موفورة فِي عصره فألف كِتَابيه " صُورَة الأقاليم " و " مسالك الممالك " توفى عَام ٣٤٦ هـ. [رَاجع تَرْجَمته فِي هِدَايَة العارفين: ٦/١، والأعلام: ٥٨/١].

فعل الله، وجميع أمره أمر الله" [1].

وهذا يعني أن الحلاج اعتنق عقيدة حلول الله في الإنسان، واستحالة الإرادة الإنسانية إلى إرادة إلهية بحيث يصبح كل ما يصدر عن الإنسان من فعل، فعلاً لله.

وإذا نظرنا إلى فلسفة الحلاج في الحلول والاتحاد نجد أنه قد عبر عن مذهبه في الحلول تعبيراً لا مجال للشك أنه قال بذلك المذهب ودان به. يقول الحلاج: " تجلى الحق لنفسي في الأزل، قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن يعلم الخلق، وجرى له في حضرة أحديته مع نفسه حديث لا كلام فيه ولا حروف، وشاهد سبحات ذاته في ذاته، وفي الأزل، حيث كان الحق ولا شيء معه، نظر إلى ذاته فأحبها، وأثنى على نفسه ....، ثم شاء الحق – سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتي ماثلاً في صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها، فنظر في الأزل وأخرج من العدم صورة من نفسه، لها كل صفاته وأسمائه، وهي آدم الذي جعله الله على صورته أبد الدهر، ولما خلق الله آدم على هذا النحو عظمه ومجده واختاره لنفسه، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو" [2] .

ويظهر تأثر الحلاج بالحلول عند النصارى لذا يعبر عن التوحيد باستخدام مصطلحات اللاهوت والناسوت فيقول:

سبحان من أظهر ناسوته ∴ سر سنا لاهوته الثاقب

(١) ينظر: المسالك والممالك، ص٩٠، الاصطخري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د. ت.

(٢) ينظر: الطواسين ص ١٢٩ – ١٣٠، للحلاج، دار الينابيع، دمشق ١٩٩٤م

ثم بدا في خلقه ظاهرا ∴ في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ∴ كلحظة الحاجب بالحاجب (1)

ويلغي الحلاج أي تمايز بين الرب والعبد حتى يصل إلى درجة من الحلول والاتحاد يقول عنها الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ∴ نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ∴ وإذا أبصرته أبصرتنا (2)

ويقول:

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني
فتوحيدك توحيدي وعصيانك عصياني(3)

ويقول:

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا في كل حال(4)

فهذه النصوص في جملتها تصور حال الحلاج، ومذهبه الحلولي بوضوح وبلا خفاء ولا مدارة.

وقد حاول البعض من الصوفية أن يوجدوا لمثل هذه الأقوال التي صدرت عن "البسطامي" و"الحلاج" وأمثالهما مخرجاً يبعدها عن الشطح

---

(1) ينظر: ديوان الحلاج ص ٢١، كامل الشيبي، مكتبة النهضة، بغداد، ط١/١٩٧٤م.
(2) ينظر: ديوان الحلاج ص٥٥.
(3) ينظر: نفسه ص٧٧.
(4) ينظر: ديوان الحلاج ص٨٢.

والخروج عن روح الإسلام، يقول السهروردي [1](ت: ٦٣٢هـ): "حاشا أن نعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى -، وهكذا ينبغي أن يعتقد في قول الحلاج ذلك، ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمراً لشيء من الحلول رددناه كما نردهم "[2].

غير أن هذه النظرية قوبلت بالرفض والنقد، بل إن كثيراً من الصوفية المعتدلين قد أعلنوا براءتهم من الحلوليين والاتحاديين فالهجويري[3] (ت: ٤٦٥هـ) يذكرهم بالضلال واللعنة فيقول: " وأما الحلولية لعنهم الله بقوله -تعالى - " وماذا بعد الحق إلا الضلال " [4].

---

(١) هو: عمر بن محمد بن عبد الله ابن عمويه، أبو حفص السهروردي: فقيه شافعيّ، مفسر، واعظ. من كبار الصوفية. مولده في " سهرورد " ووفاته ببغداد. كان شيخ الشيوخ ببغداد. وأوفده الخليفة إلى عدة جهات رسولا. وأقعد في آخر عمره، فكان يحمل إلى الجامع في محفة. له كتب، منها " عوارف المعارف. [انظر: الأعلام: ٦٢/٥، وسير أعلام النبلاء ص ٢٨٧].

(٢) ينظر: عوارف المعارف: ١/ ٢٣٣، السهروردي، تحقيق: د/ عبد الحليم محمود، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٧٦م.

(٣) الشيخ الإمام العالم الفقيه الزاهد أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي- بضم الجيم وتشديد اللام وكسر الموحدة- الهجويري الغزنوي ثم اللاهوري. كان من الرجال المعروفين بالعلم والمعرفة، ومن مصنفاته كشف المحجوب وهو من الكتب المعتبرة المشهورة عند أهل العلم والمعرفة، جمع فيه كثيراً من لطائف التصوف وحقائقه، مات لعشر بقين من ربيع الثاني سنة خمس وستين وأربعمائة بمدينة لاهور فدفن بها. [انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: ٦٩/١]

(٤) ينظر: كشف المحجوب ص ٣٢٤، الهجويرى، تحقيق: د/ إبراهيم الدسوقي، دار التراث العربي، القاهرة ١٩٧٤م.

وقد تصدى الجنيد[1] (ت٢٩٧هـ) لآراء الحلاج، وأعلن عدم رضاه عـن هذه الآراء، وبين أن فيها فتنة للمسلمين، وأبعد الحلاج عن حلقته، ولمكانة الجنيد أنكرته مدرسة بغداد فسجن وحوكم[2].

---

(١) أَبُو القَاسِمِ الجُنَيْدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الجُنَيْدِ النَّهَاوَنْدِيُّ ثُمَّ البَغْدَادِيُّ، القَـوَارِيْرِيُّ، وَالِـدُه الخَزَّازُ.هُوَ شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ. وُلِدَ: سَنَةَ نَيِّفٍ وَعِشْرِيْنَ وَمائَتَيْنِ، وتَفَقَّهَ عَلَى أَبِي ثَوْرٍ. وَأَتْقَنَ العِلْمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ، وتَعَبَّدَ، ونَطَقَ بِالحِكْمَةِ، وَقَلَّ مَا رَوَى. [انظر: سير أعلام النبلاء: ١٤/٦٦].

(٢) ينظر: فصول في التصوف ص ١١١، لأستاذنا الـدكتور/ حسـن الشـافعي، دار الثقافة، د ت.

المطلب الثاني

نقد علماء ما وراء النهر دعوى الحلول والاتحاد

أشار علماء ما وراء النهر في مصنفاتهم إلى دعوى هؤلاء المتصوفة في الحلول والاتحاد، وأنكروا هذه الدعوى وبينوا للمسلمين خطأهم.

فقد ذهبوا إلى " أن جهلة المتصوفة ادعت أنه – تعالى – يتحد ببعض أوليائه في بعض الأحيان عند غلبة آثار الرياضة والمجاهدة، فيقول بعضهم: أنا الحق، ويقول بعضهم:ليس في جبتي سوى الله، سبحاني ما أعظم شأني، ويقول بعضهم: الفقير لا يحتاج إلى الله، وإذا تم الفقر فهو الله ... إلى غير ذلك من العبارات المنقولة عن الأكابر، والترهات المنقولة عن الأصاغر " (١).

سلك علماء ما وراء النهر في تفنيد نظرية الحلول والاتحاد طريقتين:

الأولى: طريقة المحققين من علماء الشريعة: وفي هذه الطريقة نظر علماء ما وراء النهر إلى مرويات الحلولية وقسموها إلى ثلاثة أمور:

الأول: ما لا يحتمل التأويل المخالف للعقيدة الصحيحة مثل ما نفل عن "الحلاج" فلا خلاف عند علماء ما وراء النهر على بطلانه، ولذلك لم يشتغلوا بتأويله " حيث أجمع الأئمة المجتهدون على كفر القائل به ".

الثاني: ما لا مساغ فيه للتأويل مثل قول من قال: " سبحاني ما أعظم شأني "، و" الفقير يحتاج إلى الله "، و" إذا تم الفقر فهو الله ".

يرى علماء ما وراء النهر أن أصحاب هذه المقولات إن ثبت وصح عنهم ذلك لا يخرج حالهم عن حالتين:

---

(١) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام، الأندكاني: ١/ ٣٠٥.

الأولى: إما أن تفوهوا وهم يشعرون بتفوههم بها. ويرى علماء ما وراء النهر أنهم كفروا ساعتئذ كائنين من كانوا، ثم إنهم إن تابوا واستغفروا عادوا إلى الإيمان.

الثانية: إما أن تفوهوا وهم لا يشعرون بها. ويرى علماء ما وراء النهر أنهم في حكم المجانين في تلك الساعة فلا يؤاخذون على ذلك، ولكن ليس لأحد أن يحكيها عنهم استلذاذاً، ويتبعهم فيها اعتقاداً[1].

الثالث: ما يحتمل التأويل الصحيح مثل قول من قال: " ليس في جُبْتي سوى الله ". ذهب علماء ما وراء النهر إلى أنه يحتمل التأويل الصحيح، وهو: أن يستعار الجبة للقلب استعارة تحقيق: بجامع الظرفية [2]؛ فإن القلب وعاء المعرفة كما أن الجبة ظرف البدن.

ويرى علماء ما وراء النهر أنه إذا حمل على هذا يوافق معنى الحديث القدسي: "لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن"[3].

---

(١) ينظر: صدق الكلام في علم الكلام: ١/ ٢٠٦

(٢) قسم علماء البلاغة الاستعارة التحقيقية إلى قسمين: ١ـ الاستعارة التحقيقية الحسية كقولك: رأيت أسدا، أي: رجلا شجاعا، وذلك مما يدرك بالحس، ٢ـ الاستعارة التحقيقية العقلية مثل قولك: أبديت نورا، وأنت تريد حجة؛ فإن الحجة مما يدرك بالعقل من غير وساطة حس. والاستعارة في النص المذكور استعارة تحقيقية حسية. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٨٥،الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

(٣) قال العراقي: لم أر له أصلا، ووافقه الزركشي، وقال ابن تيمية هو مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبي. [انظر: تخريج أحاديث الأحياء للعراقي: ١٥/٣، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص ٣٧٣ حديث رقم ٩٩٠، =

الطريقة الثانية: طريقة أهل الإشارة وأصحاب التحقيق من أكابر الصوفية على وفق الشرع: سلك علماء ما وراء النهر طريقة المعتدلين من أهل التصوف في تفنيد نظرية الحلول والاتحاد لبيان أمرين:

الأول: التأكيد على أنهم لم يقفوا من التصوف موقف المعادي الرافض، وإنما عداؤهم ورفضهم للانحرافات والتجاوزات الغريبة عن روح الإسلام.

الثاني: لبيان أن المتصوفة لا يلزمهم الحجة - في زعمهم - إلا إذا كانت من جنس مقولاتهم. ومن ثم فلا ينجع فيهم ألف إلزام على قانون تقرير أصحاب الشريعة.

يرى علماء ما وراء النهر أن من أراد أن يهذب خلقه، ويجاهد نفسه لابد له من ثلاثة منازل: بداية، ونهاية، وبين بين.

ولكل منزل مقامات ودرجات لا تحصى، فإذا سلك مقاما وبلغ درجة في مبادئ منزل البداية ظهر له من روح الجمال وهيبة الجلال فجاءه ما لم يخطر بباله، ولم يسمع به في أحواله، فربما يصدر منه من غاية الفرح، أو فرط الدهشة كلمة يؤاخذ بها وهو يعذر، ولكن كل من تكلم بها مجردا عن تلك الحالة ضل وكفر[(١)].

ومثاله في الشرع ما ورد في بعض الأخبار: "أتسخر بي وأنت الملك"[(٢)]

= وكشف الخفاء للعجلوني: ٢/ ٢٥٥ حديث رقم ٢٢٥٦].

(١) ينظر: صدق الكلام: ٣٠٦/١.

(٢) راوه البخاري في صحيحه كتاب الرقائق، باب " صفة الجنة والنار " حديث رقم(٦٧٥١)،ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا " حديث رقم (١٨٦).

وفي بعضها: " أنت عبدي وأنا ربك فيضحك له رب العالمين " [1].

فإذا جاوز الفقير المرتاض هذا المنزل وبلغ المنزل المتوسط، تبين له أنه لم يكن في مقام محمود في سلوكه فيتعاظمه ويتندم، فإذا جاوزه وبلغ النهاية عرف الأمور، واعترف بالقصور، واطلع على الأسرار، واشتغل بالاستغفار.

ويقرر علماء ما وراء النهر أن مثل هذه الكلمات الصادرة عن الصوفية تحمل على البُداءات دون النهايات[2].

وذهب علماء ما وراء النهر - في ختام نقدهم - إلى أن كلام الحلولية خارج عن طريق العقل والشرع،وأن قولهم ناشئ عن الجهل العظيم بامتناع اتحاد الاثنين، ولزوم كون الواجب هو الممكن، والممكن هو الواجب، وإنه محال بالضرورة.

ويلزم علماء ما وراء النهر الحلولية بأن قولهم يفضي إلى البطلان، حيث إنه لو حل في جسم، فإما في جميع أجزائه فيلزم الانقسام، أو في جزء منه فيلزم أن يكون أصغر الأشياء وكلاهما باطل بالضرورة.

وأيضاً على افتراض أن الحلول يحدث في محل فإن قولهم يفضي إلى البطلان، فيرى الماتريدية أنه لو حل في محل، فإما مع وجوب ذلك فحينئذ يفتقر إلى المحل ويلزم إمكانه وقدم المحل بل وجوبه؛ لأن ما يفتقر إليه الواجب أولى بأن يكون واجبا، وإما مع جوازه، وحينئذ يكون غنياً عن

---

(١) راوه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التوبة، حديث رقم ٦٣٠٨، ومسلم، كتاب: التوبة، باب: في الحض على التوبة، رقم ٢٧٤٧.

(٢) صدق الكلام في علم الكلام: ٣٠٦/١

المحل، والحال يجب افتقاره إلى المحل، فيلزم انقلاب الغني عن الشيء محتاجاً إليه، وهو باطل بالضرورة(١).

تعقيب:

وفي ختام حديثنا عن نقد علماء ما وراء النهر لنظرية الحلول والاتحاد عند الصوفية نسجل بعض الملاحظات:

أولا: أن نقد علماء ما وراء النهر لهذه النظرية يمثل حلقة من حلقات الفكر الإسلامي الذي أنكر دعوى هؤلاء المتصوفة في الحلول والاتحاد بجميع طوائفه.

فقد أبان البغدادي(٢) (ت: ٤٢٩هـ) أن غرض الحلولية القصد إلى إفساد القول بالتوحيد فقال: " الحلولية في الجملة عشر فرق كلها كانت في دولة الاسلام وغرض جميعها القصد الى افساد القول بتوحيد الصانع" (٣).

وشيخ الإسلام ابن تيمية يضع للرد عليهم كتبا مستقلة ورسائل عديدة

---

(١) انظر: إشارات المرام ص ١١٢ بتصرف، البياضي، تحقيق: يوسف عبد الرازق، طبعة البابي الحلبي ١٩٤٩م.

(٢) هو: عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي الإمام الكبير الأستاذ أبو منصور البغدادي الشافعي، الفقيه الأصولي النحوي، قال عنه السبكي في الطبقات: "إمام عظيم القدر جليل المحل كثير العلم حبر لا يساجل في الفقه وأصوله والفرائض والحساب وعلم الكلام اشتهر اسمه وبعد صيته وحمل عنه العلم أكثر أهل خراسان"، له تصانيف كثيرة، منها: «أصول الدين والفَرق. بين الفِرق. توفي سنة ٤٢٩هـ. [انظر: طبقات الشافعية: ١٣٦/٥، وسير أعلام النبلاء: ٥٧٢/١٧].

(٣) انظر: الفرق بين الفرق، البغدادي ص ٢٢٥، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، د. ت.

يبين فيها أصول هذه الدعاوى تاريخياً، ومدى بعدها عن الإسلام[1].

وكشف أبو علي الجبائي المعتزلي[2] (ت: ٣٠٣هـ) حيل الحلاج، وأجبره على الخروج من الأهواز، قال ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ): "لما افتتن الناس بالأهواز وكورها بالحلاج، وما يخرجه لهم من الأطعمة والأشربة في غير حينها، والدراهم التي سماها دراهم القدرة، حدث أَبُو عَلي الجبائي بذلك، فَقَالَ لهم: هذه الأشياء محفوظة في منازل تمكن الحيل فيها، ولكن أدخلوه بيتا من بيوتكم لا من منزله وكلفوه أن يخرج منه

(١) من أهم مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على الحلوليين:
١- رسالة أهل الصفة.
٢- رسالة في إبطال وحدة الوجود.
٣- رسالة في لباس الصوفية.
٤- حقيقة مذهب الاتحاديين.
٥- رسالة في الرد على ابن عربي، وكل هذه الرسائل جمعها الشيخ رشيد رضا في مجموعة الرسائل. [انظر: من قضايا التصوف ص ١١٨، لأستاذنا الدكتور/ الجليند].

(٢) شَيْخُ المُعْتَزِلَةِ، وَصَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الوَهَّابِ البَصْرِيُّ. مَاتَ: بِالبَصْرَةِ، سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِ مائَةٍ. قال عنه الذهبي: " كَانَ أَبُو عَلِيٍّ - عَلَى بدعتِه - مُتوسِّعاً فِي العِلْمِ، سَيَّالَ الذِّهن، وَهُوَ الَّذِي ذَلَّلَ الكَلاَمَ، وَسهَّلَه، وَيسَّرَ مَا صَعُبَ مِنْهُ." لَهُ: كِتَابُ (الأُصُوْلِ)، وكِتَابُ (النَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ)، وكِتَابُ (التَّعديلِ وَالتَّجويزِ)، وكِتَابُ (الاجْتِهَادِ)، وكِتَابُ (الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)، وكِتَابُ (التَّفْسِيْرِ الكَبِيْرِ)، وكِتَابُ (النَّقضُ عَلَى ابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ)، كِتَابُ (الرَّدِّ عَلَى ابْنِ كُلاَّبٍ)، كِتَابُ (الرَّدِّ عَلَى المنَجِّمِينَ)، وكِتَابُ (مَنْ يكفرُ وَمَنْ لاَ يكفرُ)، وكِتَابُ (شَرحُ الحَدِيْثِ)، وَأَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ. [انظر: سير أعلام النبلاء: ١٤/١٨٣].

خرزتين سوداء، فإن فعل فصدقوه، فبلغ الحلاج قوله وأن قوما قد عملوا على ذلك، فخرج عن الأهواز[١].

ثانيا: أن هذه الأفكار التي ظهرت عند البسطامي والحلاج، ورغم معارضة الصوفية أنفسهم وعلماء الشرع لها؛ فإنها ظلت تعمل عملها حتي تجسدت في نظريات فلسفية متكاملة عن الفناء والحلول والاتحاد، والحقيقة المحمدية، ونحوها من النظريات التي ازدهرت في تاريخ التصوف حتى إنها طغت شهرتها على الاتجاه المعتدل في التصوف[٢].

(١) انظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: ١٣/٢٠٣، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٩٩٢م، وانظر: وتاريخ بغداد: ٨/ ٦٨٨، الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط١/ ٢٠٠٢م.

(٢) انظر: التصوف بين الإتباع والابتداع ص ٩٩.

المبحث الثلث

موقف علماء ما وراء النهر من دعوى تفضيل الولي على النبي

المطلب الأول

معنى الولي

الولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد. وقد قيل أن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات، أي متابعته لها، والولي: القريب، يقال: هذا يلي هذا، أي يقرب منه[١].

وقد ذكر الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) للولي معنيين:

الأول: الولي فعيل بمعنى الفاعل، وهو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان.

الثاني: الولي فعيل بمعنى المفعول وهو من يتوالى عليه إحسان الله وأفضاله[٢].

والولي هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب عن العاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات[٣].

وقال ابن حجر[٤] (ت: ٨٥٢هـ): "المراد بولي الله العالم بالله تعالى،

---

(١) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٩، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق ١٩٨٥م.

(٢) انظر: التعريفات ص ٢٨٢.

(٣) انظر: شرح المقاصد: ٣٢٦/٢، التفتازاني، دار الكتب العلمية، د. ت.

(٤) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر: من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة. ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، قال السخاويّ: (انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر) وكان فصيح اللسان، راوية للشعر، عارفا =

المواظب على طاعته، المخلص في عبادته" [(١)].

ويرى العلامة ابن القيم [(٢)] (ت: ٧٥١هـ) أن ولاية الله تعالى نوعان:

الأول: الولاية العامة: وهي ولاية كل مؤمن فمن كان مؤمناً لله تقياً كان له ولياً، وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه.

الثاني: الولاية الخاصة: إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه، مؤثر له على كل ما سواه في جميع حالاته، قد صارت مراضي الله، ومحابة هي همه ومتعلق خواطره، يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه، وإن سخط الخلق؛ فهذا إذا قال: أنا ولي الله كان صادقا[(٣)].

= بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين، صبيح الوجه. وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل. توفي سنة ٨٥٢هـ. [انظر: الأعلام: ١٧٨/١].

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١١/ ٣٤٢، ابن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩هـ.

(٢) مُحَمَّد بن أبي بكر بن أَيُّوب بن سعد بن حريز الزرعي الدِّمَشْقِي شمس الدّين ابْن قيم الجوزية الْحَنْبَلِيّ ولد سنة ٦٩١، قال عنه ابن حجر:" وَكَانَ جرئ الْجنان وَاسع الْعلم عَارِفًا بِالْخِلَافِ ومذاهب السّلف وَغلب عَلَيْهِ حب ابْن تَيْمِية حَتَّى كَانَ لَا يخرج عَن شئ من أَقْوَاله بل ينتصر لَهُ فِي جَمِيع ذَلِك".
وَله من التصانيف الْهَدْي وأعلام الموقعين وبدائع الْفَوَائِد وطرق السعادتين وَشرح منَازِل السائرين وَالْقَضَاء وَالْقدر وجلاء الأفهام فِي الصَّلَاة وَالسَّلَام على خير الْأَنَام ومصايد الشَّيْطَان ومفتاح دَار السَّعَادَة وَالروح وحادي الْأَرْوَاح ورفع الْيَديْنِ وَالصَّوَاعِق الْمُرْسلَة على الْجَهْمِية والمعطلة وتصانيف أُخْرَى. توفي سنة ٧٥١هـ. [انظر: الدرر الكامنة: ١٢٨/٥].

(٣) انظر: بدائع الفوائد: ١٠٦/٣، ١٠٧، ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

وقد جاءت الولاية في القرآن الكريم على وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: ولاية الله للعبد: وهى ولاية حفظ وتدبير، سواء كان تدبيرا كونيا أو شرعيا، وتدل على حب الله له، وهدايته وتقريبه من جنابه واختصاصه بفضله وإحسانه. كقوله تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء، الآية: ٧٥)، وقوله: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٥٧)

الوجه الثاني: ولاية العبد لربه: تعني محبته، والقرب منه، والتقرب إليه بما شرع وحفظ لحدوده وتوحيده،

ولزوم طاعته كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٤).

وقوله تعالى أيضا فى التحذير من ولاية الأعداء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (سورة الممتحنة، الآية: ١)، وقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة التوبة، الآية: ٢٣).

الوجه الثالث: وهو ولاية الشيطان: وهي قرب من الشيطان ومحبة بإتباع أوامر جنوده، وهو هوى النفس وإغراء الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٣٠) وقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً ﴾ (سورة النساء، الآية: ١١٩)

وكلما اقترب المرء من الله بولايته ابتعد عن الشيطان بالإعراض عنه، والعكس صحيح، فكلما ازدادت ولاية المرء للشيطان زاد بعده عن الله. ولا يجتمع في قلب المؤمن ولاية الله مع ولايته للشيطان في وقت واحد أبدا[١].

فالولاية المعروفة شرعاً – كما يرى أستاذنا الدكتور/ السيد الحجر – إنما تقوم على محبة الله وطاعته، والتقرب إليه بما شرع من القربات[٢].

والله تعالى وصف أولياؤه بصفتين أساسيتين فقال سبحانه: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (سورة يونس: ٦٢ – ٦٣) فالإيمان والتقوى أصل ولاية الله، وبحسب إيمان العبد بالله وتقواه لله تكون درجته في الولاية، فمن كان أكمل إيمانا وأكثر تقوى كان أكمل في ولايته وقربه من ربه[٣].

ومن ثم فإن الولاية لا تكون قاصرة على شخص أو على طائفة مخصوصة، بل قد تتحقق في أي شخص إذا ما حقق أصل الولاية من إيمان وتقوى.

---

(١) ينظر: من قضايا التصوف ص ١٤٦.

(٢) ينظر: التصوف بين الإتباع والابتداع ص ١٠٩.

(٣) ينظر: من قضايا التصوف ص ١٤٨.

المطلب الثاني
الولاية عند الصوفية

أخذت الولاية عند الصوفية معنى خاصاً تتميز به عن المعنى العام لها، وإن كانت بينهما علاقة لزومية. غير أن الصوفية في حديثهم عن الولاية - كما ذكر أستاذنا الدكتور/ الجليند - يهملون المعنى الواضح والقريب للفظ ويركزون حديثهم على المعنى اللازم لها[١].

ويقسم الحكيم الترمذي[٢] (ت:٣٢٠هـ) الولاية إلى نوعين:

النوع الأول: ولاية العموم: ويسميها ولاية حق الله، وهى لرجل أفاق من سكرته فتاب إلى الله تعالى، وعزم على الوفاء لله - تعالى - بتلك التوبة، فنظر إلى ما يراد له في القيام بهذا الوفاء، فإذا هي حراسة هذه الجوارح السبع لسانه وسمعه وبصره ويده ورجله وبطنه وفرجه، فصرفها من باله، وجمع فكرته وهمته في هذه الحراسة حتى استقام، فهو رجل مؤدى الفرائض حافظ للحدود، لا يشتغل بشيء غير ذلك، يحرس هذه الجوارح حتى لا ينقطع الوفاء لله تعالى بما عزم عليه، فسكنت نفسه وهدأت جوارحه[٣].

---

(١) انظر: من قضايا التصوف: ١٥٥

(٢) الإِمَامُ، الحَافِظُ، العَارِفُ، الزَّاهِدُ، أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ الحَسَنِ بنِ بِشْرٍ الحَكِيْمِ التِّرْمِذِيّ. الصوفى صاحب التصانيف سمع الكثير من الحديث بخراسان والعراق قال الذهبي: " وَلَهُ حِكَم وَمَوَاعِظ وَجَلاَلَة، لَوْلاَ هَفْوَةً بَدَت مِنْهُ." توفي سنة ٣٢٠هـ. [انظر: سير أعلام النبلاء: ١٣/٤٤٠، وطبقات السبكي: ٢/٢٤٥].

(٣) انظر: كتاب ختم الأولياء ص١١٨، للترمذي، تحقيق: عثمان يحيى، بيروت، د ت.

النوع الثاني: ولاية الخصوص: وهى لهؤلاء المجذوبين، الذين جذبهم الله إليه عن طريقه، فيتولى اصطفاءهم وتربيتهم حتى يصفى نفوسهم الترابية بأنواره كما يصفى جوهر المعدن بالنار، حتى تزول ترابيته، وتبقى النفس صافية وتمتد تلك التصفية حتى إذا بلغوا الغاية من الصفاء، أوصلهم إلى أعلى المنازل وكشف لهم الغطاء عن المحل، وأهدى إليهم عجائب من كلماته وعلومه وإنما يمتد ذلك لأن القلوب، والنفوس لا تحتمل مرة واحدة كل ذلك فلا يزال يلطف بهم حتى يعودهم احتمال تلك الأهوال التي تستقبلهم من ملكه[1].

أما الولاية في مفهوم "ابن عربي"[2] (ت: ٦٣٧هـ) فقد اتخذت – كما قال أستاذنا الدكتور "الجليند" – شكلا فلسفياً يلعب فيه الخيال الصوفي دوراً بارزاً، فيجعل منها "ابن عربي" القطب الذي يدور حوله كل شيء في هذا العالم ولا يدور هو حول شيء[3].

قسم ابن عربي (ت: ٦٣٧هـ) الولاية إلى قسمين:

الأول: ولاية عامة: ويقصد بها دائرة الولاية المصاحبة لدائرة النبوة،وهذه ختمت بعيسى – عليه السلام –.

---

(١) انظر: كتاب ختم الأولياء ص ٤٠٩.

(٢) هو: أبو عبدالله محمد بن علي المعروف بابن عربي الطائي الحارثي الأندلسي من غلاة الصوفية القائلين بوحدة الوجود. له كتب كثيرة في التصوف منها:" الفتوحات المكية" و" فصوص الحكم" وغيرها، مات سنة ٦٣٧هـ. [انظر: جمهرة الأولياء: ٣٠١/٣].

(٣) انظر: من قضايا التصوف ص ٢٢٦.

الثاني: ولاية خاصة: ويسميه خاتم الولاية المحمدية، وهو الخاتم الحقيقي فلا يكون بين الأمة من هو أكبر منه.

ويجعل "ابن عربي (ت: ٦٣٧هـ) " خاتم الأولياء موازياً لخاتم المرسلين ومساوياً له علماً وتعلماً، ويفسر منزلته بين الأنبياء في ضوء نظريته في وحدة الوجود " فالحق مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسماءه وظهور أحكامها فاختلط الأمر وانبهم، فمنا من جهل في علمه فقال العجز عن درك الإدراك إدراك، ومنا من علم فأعطاه العلم والسكون وهذا هو أعلى عالم بالله، وليس ذلك إلا خاتم المرسلين وخاتم الأولياء "(١).

ثم ينتقل "ابن عربي" إلى القول بتفضيل خاتم الأولياء على خاتم الرسل فيجعل الرسالة تابعة في الأخذ والتعليم لخاتم الأولياء، بل المصدر الوحيد لأي تعليم إلهي يقف عليه رسول أو نبي لا يكون إلا عبر مشكاة خاتم الأولياء؛ وذلك لأن النبوة والرسالة تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدا.

يقول "ابن عربي"(ت: ٦٣٧هـ): " فلا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة - أعني نبوة التشريع ورسالته - تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدا، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء "(٢) .

---

(١) انظر: الفتوحات المكية: ٢/ ٢٤ - ٢٥، ابن عربي، تحقيق: عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م

(٢) انظر: فصوص الحكم ص ٦٢، ابن عربي، تعليق: د/ أبوالعلا عفيفي، ط٢ بيروت دار الكتاب العربي ١٩٨٠م.

ويرى "ابن عربي (ت: ٦٣٨هـ) " أن النبي من حيث كونه ولياً أفضل منه من حيث كونه نبياً، ومن هنا فولاية النبي أفضل من نبوته، ونبوته أفضل من رسالته، لذلك يقول:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون النبي

ويقول: " فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي عارف، ولهذا مقامه من حيث هو عارف أتم وأكمل من حيث هو رسول " [1].

ويقسم " ابن عربي" (ت: ٦٣٨هـ) النبوة إلى نوعين:

١- نبوة تشريع: وهذه منقطعة، انقطعت بموت النبي - ﷺ -.

٢- نبوة عامة: وهذه لم تنقطع، ويعني بها الولاية.ويسميها النبوة الباطنة.

يقول "ابن عربي" (ت: ٦٣٨هـ): " واعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام، ولهذا لم تنقطع، ولها الإنباء العام، وأما نبوة التشريع فمنقطعة، وفي محمد - ﷺ - قد انقطعت " [2].

ولما كانت النبوة الباطنة (وهي الولاية) مستمرة غير منقطعة، فإنها لجلالها عند "ابن عربي" ومن تبعه من المتصوفة تأتي من الله - تعالى - مباشرة بعد أن يرثها من النبي، فالولي لا يأخذ النبوة من النبي إلا بعد أن يرثها الحق منهم ثم يلقيها إلى الولي؛ ليكون ذلك أتم في حقه حتى ينسب في ذلك إلى الله لا إلى غيره[3].

---

(١) انظر: فصوص الحكم ١٣٥، ابن عربي.

(٢) انظر: السابق ص ١٣٥.

(٣) انظر: الفتوحات المكية: ٢٦٩/٤.

وهكذا دعوى خاتم الأولياء قال بها "الحكيم الترمذي" ثم صارت بعد ذلك مرتبة موهومة يدعيها كل منهم، ويدعون تفضيل خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ): " وقد ظن طائفة غالطة أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء قياسا على خاتم الأنبياء ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي فإنه صنف مصنفا غلط فيه في مواضع ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته كما يزعم ذلك ابن عربي صاحب " كتاب الفتوحات المكية " و " كتاب الفصوص " فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه كما يقال لمن قال: فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن " [(١)].

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١١/٢٢٣.

المطلب الثالث

نقد علماء ما وراء النهر دعوى تفضيل الولي على النبي

قدم علماء ما وراء النهر نقدهم لهذه الدعوى بمقدمتين:

الأولى: وفيها يفرقون بين اتجاهين من التصوف، الاتجاه المعتدل الذي يتحلى بصفة الإتباع للقرآن والسنة ويسمونهم باسم الصوفية، والاتجاه المتطرف المغالي في فهمه وسلوكياته ويسمونه باسم المتصوفة.

ومن ثم فإن علماء ما وراء النهر يبرأون الصوفية - أي الاتجاه المعتدل - من هذه الدعوى، بل ومن كل ما يخالف كتاب الله تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - وأحكام الشريعة.

الثانية: التأكيد علي أن الاتجاه المتطرف المغالي هم الذين يرددون مثل هذه الدعاوى، بل ويلحقون برسائل الصوفية مثل هذه الترهات - على حد تعبيرهم -، لسوء فهمهم، وملاءمة ذلك لطبائعهم، يقول "الأندكاني" (ت: ٧٧٧هـ): " ولعمري إني لأعرف منشأ مقالتهم الباطلة، ومصدر غوايتهم القاتلة، وهو ما يروى عن بعض أكابرة الصوفية أنه قال في رسالته: إن الولاية أعلى من النبوة؛ لأن النبوة اشتغال بالخلق، والولاية اتصال بالحق وكم بينهما، فاعتقدوه شيئا، واستدلوا به على كون الولي أفضل من النبي، ثم من جاء بعد ذلك اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل"[١].

ويخلص علماء ما وراء النهر من هاتين المقدمين إلى أن هذه الدعوى لا تثبت عن الاتجاه المعتدل ومن ثم فقد ردوا هذه الدعوى من وجوه:

---

(١) انظر: صدق الكلام في علم الكلام: ٢/٥٩٩.

الأول: ذهب علماء ما وراء النهر إلى بطلان زعم من زعم أن الأولياء أفضل من الأنبياء؛ بأن إيمان الأنبياء وجميع المؤمنين صحيح بالأنبياء بدون الأولياء، وإيمان الأولياء وجميع المؤمنين لا يصح بدون الأنبياء. فهيهات بين الأنبياء والأولياء، وأنى يبلغ الأولياء درجة الأنبياء ؟ (١)

الثاني: أن النبوة تستلزم الولاية؛ لاستحالة أن يستنبئ الله عدوه ويوحي إليه، من غير عكس، وكان كل نبي ولياً لا محالة، ولم يكن كل ولي نبياً، ولن يفضل صاحب فضيلة واحدة صاحب فضيلتين إحداهما تلك والأخرى غيرها، بل لن يبلغه في الدرجة العليا (٢).

الثالث: يرى علماء ما وراء النهر أن بعضهم أوّله وصححه بأن المراد أن الولاية والنبوة إذا اجتمعتا في رجل واحد فولايته أعلى من نبوته، فلا يلزم منه أفضلية الولي على النبي.وفي هذا التأويل أيضا نظر؛ لأن النبوة لا تخلو إما أن تتصور مجردة عن الولاية أو لا. وعلى الثاني فالولاية مأخوذة في تصورها، فكيف تفضل الفضيلة الواحدة الفضيلتين ؟

وعلى الأول فالنبوة ما هي إلا تبليغ الوحي إلى الخلق، لتصحيح أديانهم وتخليص أبدانهم من عذاب الله، وهذا اتصال بالحق؛ إذ يستحيل أن يراد الاتصال من حيث الجسم أو المكان أو المسافة، بل يراد به الاتصال من حيث الرتبة والزلفى عند الله – تعالى –.

فعلم أن تضمن هذا الاتصال نجاة الخلق من حيث العذاب فضيلة أخرى

---

(١) انظر: البداية من الكفاية ص ٩٩.

(٢) انظر: صدق الكلام: ٢/٦٠٠، وانظر: التمهيد في أصول الدين ص ٥٢، أبو المعين النسفي، مكتبة التراث الأزهرية ٢٠٠٦م

مضمومة إلى الأولى، فكيف يثبت هذا المدعى ؟

ويقرر علماء ما وراء النهر أنه إذا تجوزنا صحة هذا التأويل،فـالفرق بين فضل الولاية على النبوة وفضل الأولياء على الأنبياء كفرق ما بين الأرض والسماء، فثبت أن الأولياء لا يبلغون درج الأنبياء(١).

الرابع: يرى علماء ما وراء النهر أن كل ما يفعله الولي يجب أن يصدر عنه على موافقة شريعة نبيه على سبيل المتابعة، فلن يبلغ الولي درجة النبي، وليس ما يفعله الولي عن اختيار غير الشريعة في الحقيقة، حتى لو صار عنه ما يخالف الشريعة بقي محروما عن سعادة الحقيقة إلا إذا تاب واتبع الشريعة(٢).

الخامس: أما ما احتج به المتصوفة من قصة "الخضر" مع "موسى"؛فإن علماء ما وراء النهر ذهبوا إلى أن الخضر مع ما اطلع عليه من ذلك السر لا يبلغ درجة موسى – عليهما السلام –، وكيف يبلغ من اختلف في نبوته علماء الدين درجة من هو صاحب الكتاب من المرسلين؟ (٣)

تعقيب:

وفي ضوء ما سبق نسجل هاتين الملاحظتين:

الأولى: أنه لا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور الخارقة للعادة أنه ولي لله؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق

(١) انظر: صدق الكلام: ٢/٦٠٠.

(٢) انظر: البداية من الكفاية ص ٩٩.

(٣) انظر: صدق الكلام: ٢/٦٠٢.

الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة(١).

ومن هنا نعلم كيف ضل من اعتقد تفضيل الولاية على النبوة، أو الولي على النبي، فهي فكرة فاسدة لا تصح شرعا ولا عقلا؛ لأن الولي مهما ترقى في منازل الولاية، وبلغ ما بلغ من التقوى والصلاح، فإنه لا يبلغ منزلة الولاية إلا بحسن متابعته للنبي - ﷺ -، والاقتداء بسنته في كل صغيرة وكبيرة، وإتباع شريعته، والجمع بين العلم بها والعمل بموجبها.

كما أن علم الولي لا يرقى إلى مرتبة الصحة المطردة دائما بالنسبة للأنبياء، وإنما يجوز عليه الخطأ والنسيان، ويكون الحكم على علمه بحسب قربه أو بعده من مشكاة النبوة، فما وافق القرآن الكريم والسنة المطهرة قبلناه، وما خالفهما رد عليه.

فهذه هي النظرة الشرعية للولاية والأولياء. أما هذا الغلو من المتصوفة في الولي وعلمه فهو غلو يصادم النص ويخالف العقل.

<u>الملاحظة الثانية:</u> أرى أن السبب الرئيس في هذه الدعوى يتمثل في تأثر المتصوفة بالفلسفة وما فيها من تفضيل للفيلسوف على النبي، يقول "شيخ الإسلام ابن تيمية" عن الفلاسفة: " فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حقّ قدرها، وقد ضلّ بهم طوائف من المتصوفة المدّعين للتحقيق وغيرهم، وابن عربي، وابن سبعين(٢) (ت: ٦٦٩هـ) ضلوا بهم؛ فإنّهم اعتقدوا

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٢١٤/١١

(٢) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ابن سبعين الإشبيلي المرسي الرّقوطي، أبو محمد: من زهّاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، وكانت له بلاغة وبراعة وتفنن في العلوم وكثر أتباعه وله مقالة في تصوف الأتحادية، له كتب =

مذهبهم، وتصوّفوا عليه"[1].

وعلى هذا من ادعى من المتصوفة طريقاً إلى الله غير طريق رسله وأنبيائه،أو سلك في ذلك سبيلاً غير سبيل المؤمنين، فهو جاحد لما جاء به الرسل ظاهراً وباطناً.

وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل يكون كلاهما موافق الشريعة فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالاً عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه[2].

= كثيرة في التصوف والفلسفة. توفي سنة٦٦٩هـ. [انظر: الأعلام: ٣/٢٨٠، ولسان الميزان: ٣/٣٩٢].

(١) انظر: النبوات: ٢/٧١٣ ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١/ ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل: ١/٢١٩ - ، ابن تيمية، تعليق: السيد محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي، د. ت.

المبحث الرابع

موقف علماء ما وراء النهر من دعوى الحقيقة غير الشريعة

المطلب الأول

معنى الحقيقة والشريعة عند الصوفية

ورد مصطلح الحقيقة في ألفاظ الصوفية على عدة معان، تدور أغلبها حول الصدق في الإيمان، وبلـوغ درجـة الإحسـان، وكمـال المراقبـة، والمداومة على النظر في أفعال اللَّه[1].

وقد عرف السراج الطوسي[2] (ت: ٣٨٧هـ) الحقيقة فقـال: (الحقيقـة وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدي من آمن به، فلو داخل القلوب شـك أو مخيلة، فيما آمنت به حتى لا تكون به واقفة وبين يديه منتصبة، لبطـل الإيمان، وهو قول النبي – ﷺ – لحارثة: " لكل شيء حقيقة، فمـا حقيقـة إيمانك ؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلى، وأظمـأت نهـاري، وكأني أنظر إلى عرش ربى بارزاً "[3] .

---

(١) المعجم الصوفي ص٥٦٦، محمود عبدالرازق، رسالة دكتوراه بكلية دار العلـوم: ١٤١٨هـ.

(٢) عبد الله بن علي الطوسي، أبو نصر السراج: زاهد، يعرف بطاوس الْفُقَرَاء. كـان شيخ الصوفية، على طريقة السنّة. له كتاب اللمع في التصوف.[الأعلام: ٤/١٠٤].

(٣) حديث ضعيف، أخرجه الطبراني في المعجم الكبيـر، بـاب: الحـارث بـن مالـك الأنصاري، حديث رقم ٣٣٦٧، انظر: معجم الطبراني الكبير: ٣/٢٦٦، لأبى القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، مراجعة: حمدي بن عبد المجيد، نشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة: ط٢/ ١٩٨٣م.

وكأنه يعبر عن مشاهدة قلبه، ودوام وقوفه وانتصابه بين يدي ربه، لما آمن به حتى كأنه رأى العين[1].

بينما عرف الهجويرى (ت: ٤٦٥هـ) الحقيقة فقال: " مرادهم بهذا اللفظ إقامة العبد في محل وصل الله، ووقوف سره على محل التنزيه" [2].

وذهب الهجويرى (ت: ٤٦٥هـ) إلى أن الحقيقة عبارة عن المعنى الذي لا يجوز عليه النسخ مثل معرفة الحق، وصحة معاملة النفس بخلوص النية. والشريعة عبارة عن المعنى الذي يجوز عليه النسخ والتبديل، مثل أحكام الأوامر، ومن ثم فالشريعة هي فعل العبد، والحقيقة هي حفظ الله وعصمته جل جلاله للعبد[3].

أما الشريعة عند الصوفية فهي تقابل الحقيقة، وقد أدلى كل منهم بما يكشف معناها في مقابل معنى الحقيقة عندهم، فمن ذلك الشريعة بمعنى جميع الأحكام التكليفية المتعلقة بأعمال الإنسان الظاهرة والباطنة[4].

ويرى السراج الطوسي (ت: ٣٨٧هـ) "أن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجع معنيين: الرواية والدراية؛ فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرد القول في العلم:

---

(١) انظر: اللمع ص٤١٣، الطوسي، تحقيق: د/ عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٦٦٠م.

(٢) انظر: كشف المحجوب: ٦٢٨/٢، الهجويرى، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧م.

(٣) انظر: السابق ص ٦٢٧.

(٤) انظر: الصوفية نشأتها وتطورها ص٤٤ محمد العبْده، وطارق عبد الحليم: ط٤/ ٢٠٠٤م

أنه ظاهر أو باطن؛ لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه إلـــى أن يجري ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر" [١].

ويؤكد القشيري[٢] (ت: ٤٦٥هـ) على ضرورة التلازم بـين الحقيقـة والشريعة فيقول: "ومن ذَلِكَ الشريعة والحقيقـة، الشـريعة أمـر بـالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فَكُل شريعة غَيْر مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول وكل حقيقة غَيْر مقيدة بالشريعة فغير محصول، فالشـريعة جـاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عَن تصريف الحـق. فالشـريعة أَن تعبـده والحقيقة أَن تشهده، والشريعة قيام بِمَا أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر.

واعلم أَن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره، والحقيقة أَيْضًـا شريعة من حيث إِن المعارف بِهِ سبحانه أَيْضًا وجبت بأمره" [٣].

ويتضح من هذه التعريفات الحرص على الربط بين الحقيقة والشريعة، وتأكيد التلازم بينهما، بيد أن هذا الفهم تغير على يد الاتجاه المتطرف مـن المتصوفة، فتلاشى هذا التلازم، وحل محله نظرة التفريق والمغـايرة بـين الحقيقة والشريعة.

---

(١) انظر: اللمع ص٤٣.

(٢) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوريّ القشـيري، مـن بنـي قشير بن كعب، أبو القاسم، شيخ خراسان في عصره، زهدا وعلمـا بالـدين مـن كتبه: التيسير في التفسير، ولطائف الإشارات، والرسالة القشيرية. تـوفي سـنة ٤٦٥هـ. [انظر: الأعلام: ٤/٥٧].

(٣) انظر: الرسالة القشيرية: ١/١٩٥، عبد الكريم القشيري، تحقيق: د/ عبـد الحلـيم محمود، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

ومن هنا وجد في هذه المسألة اتجاهان:

١- **الاتجاه المتطرف:** أفرط هذا الاتجاه في الغلو فصرح بأن الشريعة للعوام والمحجوبين، وقال بإسقاط التكاليف الشرعية لأنها في نظره ليست له، وإنما لغيره من عوام الناس.

وقد قصد هذا الاتجاه من دعواه التحلل من أعمال الجوارح و الانفلات منها بالكلية، والاكتفاء بما هم فيه من مقام، و"البسطامي"، و"الحلاج" أمثلة لهذا النوع من الصوفية[١].

نقل أبو طالب المكي[٢] (ت: ٣٨٦هـ) عن أحد المتصوفة أنه قال:" إنّ الله - ﷻ - اطلع على قلوب طائفة من عباده فلم يرها تصلح لمعرفته ولا موضعاً لمشاهدته، فرحمها فوهب لها العبادات والأعمال الصالحات" [٣].

ومن إفراطهم في الغلو في دعواهم أن الحقيقة غير الشريعة ما كشفه شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله:" حدثني الشيخ العالم العارف كمال الدين المراغي[٤] شيخ زمانه أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء في التوحيد قال: قرأت

---

(١) انظر: من قضايا التصوف ١٠٣

(٢) محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب: واعظ زاهد، فقيه صاحب القوت. من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها. وتوفي ببغداد سنة ٣٨٦هـ. انظر: ميزان الاعتدال: ٣/ ٦٥٥، والأعلام: ٣٧٦/٦

(٣) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب: ٥١/٢، أبو طالب المكي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط٢/٢٠٠٥م

(٤) عمر بن الياس بن يُونُس المراغي أَبُو الْقَاسِم الصُّوفِي كَمَال الدّين ولد بِأذربيجَان سنة ٦٤٣ وَقدم دمشق سنة ٧٢٩ وَهُوَ ابْن نَيف وَثَمَانِينَ سنة وجاور قبل ذَلِك =

على العفيف التلمساني[1] من كلامهم شيئا فرأيته مخالفا للكتاب والسنة فلما ذكرت ذلك له قال: القرآن ليس فيه توحيد، بل القرآن كله شرك ومن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد. قال فقلت له: ما الفرق عندكم بين الزوجة، والأجنبية والأخت الكل واحد؟ قال لا فرق بين ذلك عندنا وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراماً فقلنا هو حرام عليهم عندهم وأما عندنا فما ثم حرام "[2].

وَلا يخفى أن تفريق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة ناتج عن جهل من قائله؛ لأن الشريعة كلها حقائق، فَإِن كانوا يريدون بذلك الرخصة والعزيمة فكلاهما شريعة[3].

٢- **الاتجاه المعتدل:** الذي حرص على الربط الدائم بين الحقيقة والشريعة، وتأكيد التلازم بينهما، فالشريعة عندهم عين الحقيقة، والحقيقة عين الشريعة. فهم يربطون في منهجهم بين عمل الجوارح وعمل القلب بحيث يكون

= بالقدس ثَلَاثِينَ سنة وَأَقَام قبلهَا بِمصْر خمس عشرَة سنة. [انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ٤/١٨٤].

(١) أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن يس العابدي الكومي ثم التلمساني، الشاعر المتقن المتفنن في علوم منها النحو والأدب والفقه والأصول، وله في ذلك مصنفات، وله شرح مواقف النفر وشرح أسماء الله الحسنى، وله ديوان مشهور، ولولده محمد ديوان آخر، قال ابن كثير: " وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، وشهرته تغني عن الإطناب في ترجمته". [انظر: البداية والنهاية: ١٣/٣٨٥].

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٢/٢٤٣ – ٢٤٥.

(٣) انظر: تلبيس إبليس، ص ٢٨٧، ابن الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١/ ٢٠٠١م.

القلب والجوارح في شغل دائم بالله عند أداء العبادة.

والحق أن مسألة الربط بين الحقيقة والشريعة - كما ذكر أستاذنا الدكتور السيد الحجر - واضحة تمام الوضوح لدى الاتجاه المعتدل وأمثلتها في أقوالهم أكثر من أن تحصى[1].

قال أبوعلي الدقاق[2] (ت: ٤٠٦هـ):" قَوْله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } [الفاتحة: ٥] حفظ الشريعة { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] إقرار بالحقيقة[3].

وقال الهجويرى (ت: ٤٦٥هـ): " فإقامة الشريعة بدون وجود الحقيقة محال، وإقامة الحقيقة بدون حفظ الشريعة محال، ومثلهما كمثل شخص حي بالروح، فعندما تنفصل عنه الروح يصير جيفة، وتصير الروح ريحاً، فقيمتهما في اقترانهما ببعضهما البعض.

وكذلك الشريعة تكون بدون الحقيقة رياء، وتكون الحقيقة بدون الشريعة نفاقاً {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩] فالمجاهدة شريعة، والهداية حقيقة، والأولى هي حفظ العبد لأحكام الظاهر على نفسه، والثانية هي حفظ الحق لأحوال الباطن عن العبد. والشريعة من المكاسب، والحقيقة من المواهب" [4].

---

(١) انظر: التصوف بين الإتباع والابتداع ص ١٥٧.

(٢) أبو علي الدّقّاق، الحسن بن علي النيسابوري الزاهد العارف شيخ الصوفية توفي في ذي الحجّة سنة ٤٠٦هـ، قال عنه المناوي: "الحسن بن علي الأستاذ أبو علي الدّقّاق النيسابوري الشافعي، لسان وقته وإمام عصره، كان فارها في العلم، متوسطا في الحلم، محمود السيرة، مجهود السريرة". [انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٥/٤٠].

(٣) انظر: الرسالة القشيرية: ١/١٩٥.

(٤) انظر: كشف المحجوب: ٢/٦٢٨.

ولقد أدت التفرقة بين الحقيقة والشريعة عند الصوفية إلى مزالق خطيرة انتهت بكثير منهم إلى التحلل من الشريعة، والانفلات منها كلية[١].

ومن ثم فقد قام الاتجاه المعتدل بحركة نقد داخلي للتصوف وقضاياه للتأكيد على ضرورة الربط بين الحقيقة والشريعة، وأنه لا يسع أحد أن يصرح بما يناقض ما جاء به النبي - ﷺ -، وأنكروا عليهم إعراضهم عن ظواهر الشرع[٢].

قال سهل بن عبد الله[٣] (ت: ٢٨٣هـ): "احفظوا السواد على البياض فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق"[٤].

وقال أبو حمزة البغدادي[٥] (ت:٢٨٩ هـ): "من علم طريق الحق تعالى سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله - تعالى - إلا متابعة الرسول - ﷺ - في أحواله وأفعاله وأقواله" [٦].

---

(١) انظر: من قضايا التصوف ص ١٠٦.

(٢) انظر: تلبيس إبليس، ص ٢٨٧.

(٣) سهل بن عبد الله بن يُونُس بن عِيسَى بن عبد الله بن رفيع وكنيته أَبُو مُحَمَّد أحد أَئِمَّة الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين فِي عُلُوم الرياضات، وَالْإِخْلَاص، وعيوب الْأَفْعَال. قال السلمي في الطبقات: " توفّي سنة ثَلَاث وَثَمَانِينَ وَقيل سنة ثَلَاث وَتِسْعين وَمِائَتَيْنِ وأظن أَن ثَلَاثًا وَثَمَانِينَ أصح وَالله أعلم وَأسْندَ الحَدِيث. [انظر: طبقات الصوفية: ١٦٦ - ١٦٧].

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٨٧.

(٥) أَبُو حَمْزَة الْبَغْدَادِيّ الْبَزَّاز، اسمه محمد بن إبراهيم، كَانَ عَالما بالقراءات، صحب السّري بن الْمُغلس السَّقطِي وبشراً الحافي، توفّي سنة تسع وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ. [انظر: طبقات الصوفية ص ٢٢٧].

(٦) انظر: الرسالة القشيرية: ١/ ١٠٧

وقال أبو سعيد الخراز[١] (ت: ٢٨٦هـ): "كل باطن يخالف ظاهراً فهـو باطل"[٢].

وَقَالَ الْجُنَيْد (ت: ٢٩٧هـ): " الطّرق كلهَا مسدودة على الْخلق إِلَّا مـن اقتفى أثر الرَّسُول – ﷺ – واتبع سنته ولَزِمَ طَرِيقَته فَإِن طـرق الْخيـرَات كلهَا مَفْتُوحَة عَلَيْهِ" [٣].

وذكر رجل الْمعرفَة عند الجنيد فَقَالَ أهل الْمعرفَة بِاللَّه يصلونَ إِلَى ترك الحركات من بَاب الْبر والتقرب إِلَى الله تَعَالَى، فَقَالَ الْجُنَيْد: إِن هَذَا قَول قوم تكلمُوا بِإِسْقَاط الْأَعْمَال وَهَذِه عِنْدِي عَظِيمَة وَالَّذِي يسرق ويزني أحسن حَالا من الَّذِي يَقُول هَذَا، وَإِن العارفين بِاللَّه أخذُوا الْأَعْمَال عَن الله وَإِلَيْهِ رجعُوا فِيهَا وَلَو بقيت ألف عَام لم أنقص من أَعمال الْبر ذرة إِلَّا أَن يُحَال بِي دونهَا وَإِنَّهُ لأوكد فِي معرفتي وَأقوى فِي حَالي" [٤].

وقال أبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ): " فمن تكلم في علم الباطن علـى غير قواعد العلم الظاهر وأصوله فذلك من الإلحاد في الشـريعة والوليجـة بين الكتاب والسنة" [٥].

---

(١) أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز الصوفي، من كبار شيوخهم، كان أحد المذكورين بالورع والمراقبة، وحسن الرعاية والمجاهدة، ومات سنة ست وثمانين ومـائتين. [انظر: تاريخ بغداد: ٥/ ٤٥٤، تاريخ دمشق: ٥/١٢٩].

(٢) انظر: تلبيس إبليس، ص ٢٨٧، وتاريخ دمشق: ٥/١٣٠.

(٣) انظر: طبقات الصوفية ص ١٣٢، أبو عبد الرحمن السـلمي، تحقيـق: مصـطفى عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١/ ١٩٩٨م.

(٤) انظر: طبقات الصوفية ص١٣١.

(٥) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب: ١/٢٨١.

المطلب الثاني

نقد علماء ما وراء النهر دعوى الحقيقة غير الشريعة

ولم يقتصر نقد علماء ما وراء النهر للصوفية على الحلولية، والقائلين بتفضيل الولي على النبي فحسب، بل تصدوا للذين قالوا: إن الحقيقة غير الشريعة.

فقد حكى علماء ما وراء النهر في كتبهم مقالة من زعم أن الحقيقة غير الشريعة، وعنوا بالشريعة الأحكام الظاهرة الشرعية، وبالحقيقة الأمور المعتبرة عند الله – تعالى –. وقد نسب علماء ما وراء النهر هذا القول لطائفة تسمى الأوليائية. قال أبو اليسر البزدوي (ت: ٤٩٣هـ): " قال بعض الصوفية: إن الحقيقة غير الشريعة. وهؤلاء هم الذين يفضلون الأولياء على الأنبياء – عليهم السلام – ويقولون إن الرسل عملوا بالشريعة، والأولياء عملوا بالحقيقة ....، وهم يسمون " أوليائية"" [1].

وقد مثل هؤلاء لدعواهم بمثالين:

الأول: مثلوه بأن رجلا لو ادعى على آخر ألفا فأنكر الآخر، فأقام المدعي على دعواه بينة الزور، أو حلف المدعى عليه يمينا كاذبة، ولم يشعر القاضي بحقيقة الأمر وحكم بما هو حكم الشريعة، فإن الحقيقة غير الشريعة هنا. فالأنبياء عملوا بالشريعة،أي: بظاهر الأحكام التي بعثوا بها، والأولياء عملوا بالحقيقة، أي: اطلعوا على ما هو عند الله – تعالى – حق.

الثاني: ومثل بعضهم بوجه آخر، فقال: الشريعة توجب التصدق بخمسة

---

(١) انظر: أصول الدين ص ٢٤١، للبزدوي.

دراهم من مائتي درهم بعد حولان الحول، والحقيقة توجب التصدق بجميع النصاب في الحال [١].

يرى علماء ما وراء النهر أن هذه الطائفة مبتدعة ضالة، تخالف كتاب الله – تعالى – وسنة النبي – ﷺ –، ويدعون علم الباطن وهو مذهب القرامطة، وهم شر خلق الله تعالى[٢].

رد علماء ما وراء النهر دعوى الحقيقة غير الشريعة وأبطلوها بوجوه:

الأول: يرى" أبو اليسر البزدوي(ت: ٤٩٣هـ)" أن أصل الحقائق أجمع هي الشريعة. فلو كانت الشريعة غير الحقيقة كانت مجازاً، والمجاز ما لا ثبوت له ولا قرار. يقال: أحب فلاناً مجازاً، أي لا قرار له ولا أصل له[٣].

الثاني: أن الحقيقة علي ما فسرها عين الشريعة، والشريعة عين الحقيقة، وكل حكم جرى وثبت في الشريعة فهو الحكم عند الله – تعالى – في الحقيقة لا غير، حتى لو تأخر القاضي في مسألة شهادة الزور عن الحكم يفسق في الحال، ولو لم ير الحكم علي المدعى عليه بتلك الشهادة الظاهرة واجبا على نفسه يكفر في الحال، فلو كانت الحقيقة غير الشريعة عند اللہ تعالى – لما كفر القاضي ولما عذب في النار مخلداً.

الثالث: أما المثال الأول فأجاب عليه علماء ما وراء النهر بأن اللہ تعالى – كلفنا بالعمل على وفق الشريعة، ووعد بالثواب بموافقتها والعقاب بمخالفتها وقد تحققت الموافقة في حق القاضي فيثاب، والمخالفة في حق

(١) انظر: صدق الكلام: ٢/ ٥٩٧.

(٢) انظر: أصول الدين ص ٢٤١، للبزدوي.

(٣) انظر: أصول الدين ص ٢٤١.

من قصد الزور فيعاقب، سواء كان مدعيا أو شاهدا أو مدعى عليه.

وليس حكم عند الله – تعالى – سوى هذا في هذه الحادثة. ثم لو تبين كذب الشاهد أو المدعى الشريعة، ووعد بالثواب بموافقتها والعقاب بمخالفتها وقد تحققت الموافقة في حق القاضي فيثاب، والمخالفة في حق من قصد الزور فيعاقب، سواء كان مدعيا أو شاهدا أو مدعى عليه.

وليس حكم عند الله – تعالى – سوى هذا في هذه الحادثة. ثم لو تبين كذب الشاهد أو المدعى بأن يكذب نفسه، فيقول عند القاضي: تعمدت الكذب في شهادتي أو في دعواي، وجب على القاضي نقض الحكم إن أمكن، فإذا فعل ذلك صار مأجورا، وليس عليه شئ في الشريعة، وهو عين الحقيقة[1].

الرابع: أما المثال الثاني يقرر علماء ما وراء النهر أن الحكم في مسألة الزكاة في الحقيقة: أن التصدق بخمسة دراهم فرض على صاحب المال، كما هو حكم الشريعة، والتصدق بكله مندوب في الشريعة، كما هو الحكم في الحقيقة.

الخامس: فإن قلت: إن بعض الناس يتفوهون بأن الخضر عمل بالحقيقة في خرق السفينة وقتل الغلام،

وموسى عمل بالشريعة في إنكاره عليه، ولما نبهه الخضر على الحقيقة زال إنكاره.

قلت: هما كانا نبيين صاحبي شريعة[2]، فلا نسلم أن ما فعل الخضر

(١) انظر: صدق الكلام: ٢/ ٥٩٨.

(٢) ذكر ابن كثير الخلاف في نبوة الخضر، ورجح أنه نبي بأربعة أدلة وقال: " وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة =

غير الشريعة؛ لأن الشريعة عبارة عن العمل بصريح الوحي عبارة مرة وإشارة أخرى، ودلالة طورا واقتضاء آخر، أو بما يستنبط من الوحي اجتهادا. وما فعله الخضر كان بالوحي، وما فعله موسى أيضا كان بالوحي، فكان كل واحد من فعليهما عين الشريعة ومحض الحقيقة[1].

= الأمور دون أرباب الشرع الظاهر، مستند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه. [انظر: البداية والنهاية: ١/٣٦٨ – ٣٦٩].

(١) انظر: صدق الكلام: ٢/٦٠٢.

الخاتمة

يمكن إبراز أهم ما توصل إليه البحث من نتائج فيما يلي:

١) أن علماء ما وراء النهر فرقوا بين مسمين أحدهما محمود وهو مسمى الصوفية، والآخر مذموم وهو مسمى المتصوفة.

٢) كشف علماء بلاد ما وراء النهر عن التطرف الفكري لدى المتصوفة وتأثرهم بالمذاهب الهدامة.

٣) اهتمام علماء بلاد ما وراء النهر ببيان أن السمة الرئيسة في الفرق بين الاتجاه المعتدل والاتجاه المتطرف في التصوف هي الإتباع.

٤) أن علماء بلاد ما وراء النهر تحلوا بالإنصاف فلم يقصروا حديثهم على الجانب الهدام في التصوف، وإنما تحدثوا عن الجانب البناء وطالبوا كافة الفرق والمذاهب بالإسهام في دفعه وتشجيعه بدلاً من الطعن فيه ونقض أحواله ومقالاته.

٥) أن نقد علماء ما وراء النهر لنظرية الحلول والاتحاد يمثل حلقة من حلقات الفكر الإسلامي الذي أنكر دعوى هؤلاء المتصوفة في الحلول والاتحاد بجميع طوائفه.

٦) ذهب علماء ما وراء النهر إلى بطلان زعم من زعم أن الأولياء أفضل من الأنبياء؛ بأن إيمان الأنبياء وجميع المؤمنين صحيح بالأنبياء بدون الأولياء، وإيمان الأولياء وجميع المؤمنين لا يصح بدون الأنبياء.

٧) يرى علماء ما وراء النهر أن الطائفة التي زعمت أن الحقيقة غير الشريعة مبتدعة ضالة، تخالف كتاب الله تعالى وسنة النبي - ﷺ -، ويدعون علم الباطن وهو مذهب القرامطة،وهم شر خلق الله تعالى.

التوصيات:

١) فتح مجالات التعاون الثقافية والعلمية مع بلاد ما وراء النهر بعقد المؤتمرات والبعثات والمنح الدراسية.

٢) إبراز جهود علماء بلاد ما وراء النهر في مختلف ميادين العلم والثقافة أمام الأجيال الناشئة حتى يعلم مدى اسهاماتهم في خدمة الإسلام العظيم.

المصادر والمراجع

١. أسس الفلسفة، توفيق الطويل، ط٢، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.
٢. إشارات المرام، البياضي، تحقيق: يوسف عبد الرازق، طبعة البابي الحلبي ١٩٤٩م
٣. أصول الدين، أبو اليسر البزدوي، تحقيق: د/ هانز بيتر لنس، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٣م
٤. بحر الكلام، أبو المعين النسقي، تحقيق: ولي الدين الفرفور، مكتبة دار الفرفور، ط٢، ٢٠٠٠م.
٥. بدائع الفوائد، ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.
٦. البداية من الكفاية، نور الدين الصابوني، تحقيق: د/ فتح الله خليف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩م
٧. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط١/٢٠٠٢م.
٨. تبصرة الأدلة، أبو المعين النسفي، تبصرة الأدلة، تحقيق: كلود سلامة، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٩١م
٩. تذكرة الأولياء، فريد الدين العطار، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار المكتبي للطباعة والنشر ٢٠٠٨م
١٠. التصوف الإسلامي بين الإتباع والابتداع، السيد الحجر، دار الهانئ، ٢٠٠٤هـ.
١١. التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكولسون، ترجمة: أبو العلا عفيفي، لجنة التأليف والنشر، د. ت.

١٢.التصوف في الميزان، مصطفى غلوش، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت.
١٣.التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م
١٤.تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.
١٥.التمهيد في أصول الدين، أبو المعين النسفي، مكتبة التراث الأزهرية، ٢٠٠٦م.
١٦.ختم الأولياء، للترمذي، تحقيق: عثمان يحيى، بيروت، د. ت.
١٧.ديوان الحلاج، كامل الشيبي، مكتبة النهضة، بغداد، ط: الأولى ١٩٧٤م
١٨.الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، تحقيق: د/ عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
١٩.شرح المقاصد، التفتازاني، دار الكتب العلمية، د. ت.
٢٠.صدق الكلام في علم الكلام، كمال الدين الأندكاني، دراسة وتحقيق: حافظ عاشور، رسالة ماجستير مخطوط بكلية دار العلوم، رقم ١٥٨٢.
٢١.الصوفية نشأتها وتطورها، محمد العبْده، وطارق عبد الحليم، ط٤، ٢٠٠٤م.
٢٢.طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا/دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٢٣.الطواسين، للحلاج، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٤م.
٢٤.عوارف المعارف، السهروردي، تحقيق: د/ عبد الحليم محمود، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٧٦م.

٢٥.فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩هـ.
٢٦.الفتوحات المكية، ابن عربي، تحقيق: عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.
٢٧.الفرق بين الفرق، البغدادي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، د. ت.
٢٨.الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق ١٩٨٥م.
٢٩.فصوص الحكم، ابن عربي، تعليق أبوالعلا عفيفي، ط٢، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٨٠م.
٣٠.فصول في التصوف، حسن الشافعي، دار الثقافة، د . ت.
٣١.قوت القلوب في معاملة المحبوب، أبو طالب المكي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م.
٣٢.كشف المحجوب، الهجويرى، تحقيق: د/ إبراهيم الدسوقي، دار التراث العربي، القاهرة ١٩٧٤م.
٣٣.اللمع، الطوسي، تحقيق: عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي، دارالكتب الحديثة، القاهرة ١٦٦٠م.
٣٤.مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م.
٣٥.مجموعة الرسائل والمسائل/ابن تيمية، تعليق السيد محمد رشيد

رضا/لجنة التراث العربي، د. ت.

٣٦.المسالك والممالك، الاصطخري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د. ت.

٣٧.المعجم الصوفي، محمود عبدالرازق، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم ١٤١٨هـ.

٣٨.من قضايا التصوف، محمد السيد الجليند، مكتبة الزهراء ١٩٩٠م.

٣٩.المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٤٠.النبوات، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٠م.

